



إسلام جارودي

بين الحقيقة والافتراء



حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الاولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

رقم الإيداع القانوني

٩٦ / ٥٩٤٩

التراقيم الدولي : 977-253-109-7

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي : ٢ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - ٤٩٠٧٩٩٨ فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة : ٣٨٣٢٧٤٧



الطبعة الأولى مكتبة الاسكندرية
الرقم : ١٨١٠٥٦
سنة : ١٠٤٥
العدد : ١٤٦٥

«إسلام مرجارودي»

بين الحقيقة والافتراء

مكتوب
مصطفى حامى
كلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا
سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب ٦٩-٧١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . وبعد ، ،

فقد تعرفنا على رجاء جارودي الذي أعلن إسلامه عام ١٩٨٢م حيث قوبل بحفاوة بالغة تليق بمكانته كفيلسوف نابغ أطبقت شهرته الآفاق (واعتبر إسلامه شموخاً فكرياً للربيع الأخير من هذا القرن العشرين^(١) وأصبح علماً على شجاعة الرأي ونزاهة القصد فاتخذنا من آرائه سنداً في دراستنا النقدية للفلسفة^(٢) والحضارة الغربية إذ يجد الباحثون عن الحق عند جارودي إجابات عن تساؤلات كثيرة ، وتصحيحاً لمفاهيم نشأنا عليها بسبب نظم التعليم وأجهزة الإعلام ومؤلفات أغلب المستشرقين الذين لا يتوخون الأمانة العلمية .
وعندما تابعنا آراءه قبل الاقتراءات التي نُسبت إليه هذا العام - تحفظنا إزاء بعض آرائه التي لا نوافق عليها وفي مقدمتها (وحدة الأديان) ونظرتة للسلفية في الإسلام .

ثم صدمتنا الأنباء التي سمعناها والمقالات التي قرأناها ، وكانت الصدمة أشدّ ألماً في النفس بسبب ما أشيع عنه بالطعن في السنّة والنيل من الأئمة الفقهاء .

كان صدى الألم شديداً في النفس ثم تذكرنا الآية الكريمة :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] . عندئذ قلبنا الأمر على أكثر من وجه ، ثم قلنا : كفانا من الرجل أنه عثر في دين الإسلام على حل لمعضلات العالم ، وأصبح ديناً في عنق علمائنا مخاطبته بالاسلوب الذي يتناسب مع ثقافته وفلسفته الغربية التي ربما لم يستطع التخلص منها تماماً بحكم ماضيه الديني والثقافي وهو أمر طبيعي ومتوقع .

(١) د: عبد القادر محمود ص ١٣٦ . [المشكاة (مجموعة مقالات مهداه إلي اسم الدكتور: علي سامي النشار طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية . ١٩٨٥م .

(٢) ينظر كتابنا (الإسلام والمذاهب الفلسفية) ط دار الدعوة - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

ثم أتلج صدورنا قيامه بنفى الاتهامات المنسوبة إليه حيث قال في رسالته الموجهة إلى جريدة (الشعب) القاهرية :

« يتسقدون ويؤاخذون بافتراء على أتى أروع الشك بحق أبى حنيفة والشافعى فى حين أتى أقدمهما بشكل خاص كمثال يحتذى فى جميع كتبى ومقالاتى . . . »

وقال أيضاً بشأن إشاعة رفضه السنة :

« يتهمونى برفض السنة ، وهذه كذبة أخرى لأتى ألومهم على الاستخدام السياسى للسنة » (١)

ثم اتضح أن الحملة ضده تتصل بالمحاكمة التى يتعرض لها للمرة الثانية ضمن حملة صهيونية تتهمه بالعداء للسامية بسبب صدور كتابه الأخير (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) (٢).

وهكذا ظهر المكنون ، وافتضح المستور ، فإن حقيقة الأمر هى إثارة رويعة حول الرجل بحملات إعلامية كاذبة لحصار الرجل وتغيير المسلمين منه ليخسر التأييد المعنوى والتجاوب الإيمانى ، فيسهل التخلص منه بهدوء ، ومن ثم تفقد الأمة الإسلامية حيثذ نصيراً مخلصاً لأهم قضاياها (فلسطين) فى قلب أوروبا.

أما نحن، فقد قابلنا إسلامه بالحفاوة المناسبة وكتبنا عن تحوله العقائدى الفلسفى، آمليين إقناع بعض بنى قومنا المقنعين بحضارة الغرب وثقافته الاقتداء به، فقد تبين لنا رؤية جارودى العامة للإسلام حينذاك صحيحة ، إذ عندما تكلم عن العقيدة قال :

[لا بد أن تكون رؤيتنا للإسلام عبر القرآن والسنة النبوية ، فهذا الدين ينبذ الاذواجية المزيفة فى شئون السياسة والعقيدة والمسجد والدولة .

ولا شك أن فى مقدرة الإسلام السيطرة على الأزمة الحضارية والإنحلال فى المجتمع الغربى بفضل تشبهه بوحداانية الخالق وبوحدة العقيدة والعمل فهو

(١) ينظر ملحق رقم (١) بالكتاب ص ٩٩.

(٢) صدرت ترجمته العربية بواسطة دار الغد العربي القاهرة - يونيو سنة ١٩٩٦ م.

حامل لعوامل الجهاد ضد الاستلاب الاستعماري ، وقد نجح فعلاً في بث روح الجهاد في نفوس الجزائريين بالأمس ويدفع اليوم المجاهدين من الأفغان إلى التضحية بكل نفيس^(١) .

ويتضح إخلاص فيلسوفنا من تحديد موقفه منذ بداية إسلامه إذ سأله أصدقاؤه ومحبوه الأوربيون : « كيف تخرج على (الغرب) وأنت واحد من أهم المفكرين فيه ؟ إنك بذلك (تغامر) بخسارة رصيدك من حب الملايين ! وكان رده جاهزاً : أنا لا يهمني حب الملايين وإنما يعينني أن أكون إنساناً صادقاً مع الله »^(٢) .

ولكن في ضوء الحكمة (الحق أحب إلينا) فإننا لا نوافق جارودي على فكرته عن الدين الإبراهيمي ، أو وحدة الأديان بالشكل الذي اقترحه ونفذه ظناً أنه بذلك حل مشكلات الخلافات بين الأديان متجاهلاً الحروب الدامية والتاريخ الطويل من حملات التنصير التي يدعمها الفاتيكان وحكومات الغرب طوال القرون^(٣) !

وكان الموضوع مطروحاً منذ سنوات ، ولعل الشيخ «محمد أبو زهره» هو أول من وضع الاقتراحات من منظور إسلامي صحيح - كما سنرى - فميز بين القضايا الدينية التي لا تُناقش وما سواها ، ودعا إلى التنسيق فيما بين الأديان في القضايا المتفق عليها، كذلك لم يكن فيلسوفنا موفقاً في ظنه الخاطئ عن السلفية في الإسلام كما عرفها بكتابه (أصول الأصوليات والتعصبات السلفية)، بينما هي بوضعها العلمي الصحيح - كما سنشرح - منهج ودعوة لتذكير الأمة الإسلامية بالعقائد والمثل العليا القويمة التي تحققت بالفعل ، ويمكن تحقيقها من جديد لو نهجنا منهج السلف . وهذا ما أدى بنا إلى مواصلة الحديث عن جارودي وآرائه بين مدح وقبح ، آمليين تحقيق أهداف ثلاثة :-

(١) لماذا أسلمت ؟ ص ٩١ دراسة أعدها محمد عثمان الحشت مكتبة القرآن بالقاهرة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

(٢) مقال الأستاذ أحمد سليمان بعنوان (الرجل موقف) - جريدة الأحرار القاهرية - ٩٦/٥/٥ م.

(٣) مما دفع بباحث إلى الاهتمام بهذه الظاهرة ، فالف كتاباً بعنوان [صليبة إلى الأبد]^١

١- أن نخاطب من واقع آرائه الناقدة لحضارة الغرب بنى جلدتنا من المستغربين مسترشددين بقوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ . وتصبح الحجج أكثر إقناعاً لأنها صادرة من فيلسوف نابغ مثله شرب من كأس حضارته حتى الثمالة ، وجاس خلال مذاهبها من الماركسية إلى الوجودية إلى البنيوية ، مع سابق إيمانه بالمسيحية .

٢- ندعوه لتصحيح مفاهيمه ومن ورائه قرائه ومحبيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، لنظفر به لصالح الصحوة الإسلامية بين الأوربيين الذين تلقوا معلوماتهم المغلوطة عن الإسلام بواسطة فريق من المستشرقين ، كان دأبهم تشويه صورته بافتراءات وأكاذيب وحيل شيطانية كما أثبت ذلك العلامة الدكتور عبد الرحمن بدوي بكتابه اللذين صدرا أخيراً بباريس :
(الدفاع عن القرآن) و (الدفاع عن محمد ﷺ) (١)

٣ - إبراز المنهج الصحيح لفهم الإسلام وتطبيقه ، وهو منهج السنه والسلف الصالح ومن تبعهم الذي وجهت إليه الطعنات - لا بسبب العداوة للإسلام نفسه فحسب - بل بسبب تقصيرنا نحن أيضاً في عرضه وتقديمه بأدلته وبراهينه ، وبالمفاهيم المناسبة لأهل العصر ، وقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم .

لذلك قدمنا (السلفية) في قالب الموازنة بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية : تصوراً وتاريخاً وحضارة .

كما وضعنا المادة العلمية الخاصة بمسائل الألوهية والعالم والإنسان في إطار

(١) الدكتور أحمد عبد الحليم عطية :

ويحدد لنا بدوي مهمته في مقدمة كتابه « الدفاع عن محمد ﷺ بأنها كشف زيف كتابات المستشرقين التي لا تنفك تردد اتهامات قديمة للإسلام . ويقول د. بدوي (بالحوض في تاريخ مفاهيم الأوربيين عبر العصور حول نبي الإسلام محمد ﷺ - ذهلت تماماً لشدة جهلهم ، وسوء طويتهم الواضح ، وأوهامهم العتيقة ، وعنادهم وتمسكهم المحموم ، وإصرارهم على الالتزام بالجهل التام فيما يخص أمور خصمهم .. ويستطرد د. أحمد عبد الحليم في مقاله فيكتب (ويظهر في مقدمة كتاب بدوي عن القرآن عدم ثقته في أعمال هؤلاء المستشرقين ، لإصرارهم على تزيف المشاكل والتصورات والنتائج) - ص ٦٢ / ٦٣ من مقالته بعنوان « المائلة والمقابلة - قراءة ثانية في موقف بدوي من المستشرقين المسلم المعاصر » العدد ٧٩ - رجب - شعبان - رمضان ١٤١٦ هـ - فبراير - مارس - إبريل ١٩٩٦ م .

مشابه للنسق الفلسفي المتكامل المؤلف للعقل الغربي حتى سهل استيعابه ،
لعلنا نقرب فهم عقائد الإسلام وقيمه من عقول الغربيين والمتأثرين بهم من بني
قومنا الذين أشربوا الثقافة الغربية بروافدها الفلسفية والدينية ، كونأمل أيضاً
إزالة شبهة فحواها : أن علماء السنّة والسلف مجرد (نصيين) مقابل (العقليين)
من المعتزلة الفلاسفة .

وكان اختيارنا لموقف ابن تيمية لأنه يعبر عن المذهب السلفي ، كما امتد
آثره إلى أغلب الحركات التجديدية في العصر الحديث :
هذا وقد احتوى كتابنا بعد المقدمة على أربعة فصول :

الأول: يتضمن إعادة لما كتبناه عند إسلامه واتخذنا من آرائه حينذاك سلاحاً
بتاراً لقطع رأس الأفعى الماركسية التي أفسدت بسمومها عقول
شباب المسلمين^(١)

ومنه عرفنا أيضاً عدة حقائق عن حضارة العصر كانت خافية علينا ، كما
تبين لنا فهمه الصائب لكثير من قيم الإسلام ونظمه وحضارته .
الثاني : عرض بعض آراء جارودي في ضوء عقائد أهل السنة والجماعة ،
فناقشناه في :

أ- عقيدته عن الإبراهيمية أو وحدة الأديان .

ب - تصويره عن السلفية .

الثالث : قدّمنا فيه (السلفية) في قالب الموازنة بين العقيدة الإسلامية
والفلسفة الغربية .

الرابع : ويتضمن النسق الإسلامي في مسائل الألوهية والعالم والإنسان
عند ابن تيمية .

ثم ذيلنا الكتاب بثلاثة ملاحق تدور حول الافتراءات الموجهة إلى جارودي .
وأسأل الله تعالى أن يتفع بالكتاب ، ويجعله خالصاً لوجهه ، كما يجعلنا

(١) ينظر كتابنا « الإسلام والمذاهب الفلسفية » طدار الدعوة بالإسكندرية ٥ ١٤٤ هـ - ١٩٨٥ م



من الداعين إليه - عز وجل - بالحكمة والموعظة الحسنة. والمجادلين بالتي هي
أحسن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ١٧ صفر سنة ١٤١٧هـ

٥ يوليو سنة ١٩٩٦م



الفصل الأول

كلمة حق

إسلام جارودي : المغزى والمرمى

كلمة حق

إننا أمام هذا الحدث المذهل ، إسلام الفيلسوف ذي المكانة العالمية رجاء جارودي سنقف باحثين متأملين ثم نبين الرمي ونتعلم من أبعاده .

إنه في رأينا يعبر عن « ظاهرة » أو حركة عامة وليس حالة فردية ، بحيث يغتينا عن عشرات الأبحاث والدراسات المبنية على الاسقراء المنطقي الجاف ، لأنه أصبح بمثابة ميزان حي قد امتلأت إحدى كفتيه بالفلسفة والتاريخ والحضارات ومقارنة الأديان، ثم أخذ بالكفة الأخرى يضع دراسته لعقيدة الإسلام وتاريخه وحضارته ونظمه فرجحت الثانية، فكانت دقته في اصدار الحكم .

وما يؤكد نزاهته واخلاصه انه لا يبغي عرضاً من اشهار اسلامه، فقد أعطى الشهرة والمجد والمكانة العالمية، بل ربما كان اسلامه سبياً في تعرضه لكثير من الأزمات والصعوبات، وقد حدث ذلك بالفعل، مما يدلنا أيضاً على شجاعته الناجمة عن الإيمان واليقين الذي لا يتزعزع .

إن جارودي أعلن الإسلام دون أن يخشى في الحق لومة لائم، وهو في بلد تسيطر عليه تيارات عدائية للإسلام، وحوكم بسبب ما وصف «بالعداء للسامية» ولكن الله تعالى نصره وشد من أزره .

وكان الرجل قد خاض ثقافة وسلوكاً تجارب البشرية المعاصرة الباحثة عن الحياة الطيبة، فكافح مع الشيوعية، فلأن منه أن المذهب الماركسي سيؤدي إلى تحقيق العدالة والسعادة، ولكنه تخلى عنها عندما اصيب بخيبة أمل في المذهب وتطبيقاته .

ويمتاز جارودي بأن فلسفته ليست نتاج العكوف في الأبراج العاجية والبحث عن الثقافة للثقافة أو العلم للعلم ، ولكنها نتاج معاناة ومعايشة للأحداث ، فقد أرقته مآسى العالم المعاصر كله ، ونغص حياته رؤية الشباب الراض للحياء في الغرب وهو في سن الزهور المتفتحة لها ، ومآسى الشعوب فيما يسمى بـ « العالم الثالث »^(١) التي خربت أراضيتها ونهبت ثراوتها من

(١) أورد جارودي بالتفصيل ما تعرضت له هذه الشعوب أيام الاستعمار من عمليات تخريب علي =

رخاء المجتمعات « المتحضرة » وتشجيع جشعها، وكانت المأساة بالنسبة للعالم الإسلامي أشد وأقسى حيث تعرضت «ثقافته» الممثلة في الإسلام وعقيدته ونظمه إلى حملة اقتلاع من الجذور وتعرضه للغزو الثقافي الغربي المنظم.

ورأى فليسوفنا المسلم أن العلم « الغربي » الذي كان الأمل فيه تحقيق السعادة والرفاهية للبشرية، أصبح مهدداً للعالم بكوارث الإفناء إما بحروب الكواكب والقنابل الهيدروجينية أو بالتلوث المسمم للأجواء. فهل من حل؟

يرى جارودي أن الحل ممكن فيما سماه بـ «حوار الحضارات» حيث يجب على الغرب أن يتنازل عن اعتقاده بأنه مركز العالم ، وأن يتخلى عن النظرة العنصرية لغيره من الشعوب والحضارات(١)

«الصعيدين الثقافي والاقتصادي»: فعلي الصعيد الثقافي (كان الشغل الشاغل للمستعمر هو أن يقوض ثقة الشعوب المستعمرة بنفسها ، لقد سعي جاهداً ليدمر اصيوار الشعوب بماضيها) من محاضراته بالقاهرة -مجلة الطليعة المصرية ص ١٣٩ وعلي الصعيد الاقتصادي يذكر أن الثورة الخضراء - الزراعة نجحت في آسيا في زيادة محصول الأرز ، ثم جاءت أوروبا بالتكنولوجيا بحراثة الأرض فانطمرت التربة السطحية الخصبة وقطعت أشجار الغابات ، وفي تطوير زراعة المحصول الواحد أدى إلي تعرية سفوح جبال الهملايا وقيضانات بنجلادش ومجاعات ساحل العاج . ص ١١٥ من كتابه (ما يعد به الإسلام)

(١) في نعم مختار من كتابه (حوار الحضارات) يقول جارودي: إن خلق مستقبل حقيقي يقتضي أن تستعاد جميع أبعاد الانسان التي طورتها الحضارات والثقافات غير الغربية. فمن طريق (حوار الحضارات) هذا يمكن أن يري النور مشروع كوني لاخترع المستقبل . اخترع مستقبل الجميع من قبل الجميع.

ان (حوار الحضارات) هذا هو أمر ضروري علي الصعيد الاقتصادي:مسألة نقدية ولتغيير جلدي لنموذج النمو واكتشاف غايات أخرى للتنمية وتعريف آخر للتطور وهو يساعدنا علي الصعيد السياسي علي أن نصور وأن نعد للانتقال من ديمقراطية تمثلية إلي ديمقراطية تشاركية = وأن نحل محل التصور الاداتي والاحادي البعد للسياسة تصوراً يلزم الانسان بكليته ويكون فيه فعله الخارجي تعبيراً عن إيمانه الداخلي ان (حوار الحضارات) هذا يحارب العزلة الداعية (للانا الصغير) ويشدد علي الماهية الحقيقة للانا الذي هو أولاً علاقة بالآخر وعلاقة بالكل . وعلي هذا النحو يساعدنا علي صعيد الثقافة علي الانفتاح علي آفاق بلا نهاية ، وعلي حرية جديدة هي تلك التي تؤسس ذاتها علي أولوية الشعر والخلق وليس فقط علي المشروع التقني والمفهوم المجرد ان نضع موضع مساءلة نموذجاً للنمو أعني وبلا غاية انسانية ، بمودجاً معياره الأوحده زيادة كمية غير منقطعة للإنتاج والاستهلاك ، ان نطلب بسياسة لا تكون بعد الآن بنت نظام الوسائل وحده بل أيضاً بنت نظام الغايات ، سياسة يكون موضوعها ومعيارها وأساسها التفكير في غايات المجتمع ، ومشاركة كل فرد بدون استلاب سلطوي في البحث عن تلك الغايات وفي تحقيقها، ان نكشف ذلك البعد الجديد للإيمان بالسياسة والثقافة ، ذلك الاختيار لحرية قوامها مشاركة كل واحد في الفعل الخلاق.. ذلك هو (حوار =الحضارات) الذي يمكن أن نتخاطب فيه - بالتجادل ، وفي حوار يفتح فيه كل واحد علي حقيقة الآخر بدون أن يختزل نفسه إليها - حكمة آسيا والإسلام وافريقيا وأمريكا اللاتينية وثوراتها علي قدم المساواة مع حكمة الغرب وثوراته.

إن اسلام جارودي قد أحدث ثورة على المستوى العقائدي ، كما أحدث
ثورة على المستوى الثقافي (١)

ونعني بالأولى شجاعته في اقتحام علم مقارنة الأديان بحيث لم تسبب له
عقيدته السابقة أية حساسية لأن يبحث عن الحق باخلاص وتجرد.

أما الثورة على المستوى الثقافي، فقد عكس طرفي الاتصال بين
التراث)والعصرية).

فبعد أن كانت كالأرجوحة تميل بجانب (العصرية) وظلت مناهجنا تنظر إلى
التراث الإسلامي من الموقع التجريبي ، فقد قلب جارودي الميزان ، وقادنا
إلى رؤية العصر من خلال التراث الإسلامي.

لقد بهرنا من خلال كتبه ومحاضراته بفهمه الصحيح - العميق - لقيم
الإسلام وتاريخه وحضارته ونظمه.

وكلما مضينا معه لنخرج مع أفكاره ارددنا انبهاراً للحقائق التي كانت خافية
علينا في تراث الغرب وتاريخه، والأمراض الفتاكة التي تسرى في كيان الحضارة
الغربية .

انه كسر الطوق الذي كان يكيل الفكر الغربي عامة والفكر الاستشراقي
بوجه خاص ، فقد كان هذا الفكر مكبلاً بأغلال التعصب والجهل معاً.

ان بعض هؤلاء المستشرقين لم يعرفوا الإسلام في مصادره ولم يطلعوا على
تاريخه من منابع مؤرخيه المؤتمنين عليه ، بل اكتفوا بالاطلاع على شذرات من
ترجمات مشوهة أو مصادر لا تسلم من الضعف أو الحشو بالأكاذيب أو
التجاهات عدائية مذهبية.

كما حجب رؤيتهم حائل كثيف ، يتمثل في أوضاع المسلمين المعاصرة
الثقافية والسياسية ، و أحوالهم المتردية في العلوم والصناعات ، والمستوى

(١) كتب الأستاذ أحمد بهجت يقول (إن قصة حياة هذا الفكر العظيم تصلح هدية موحية لأبناء الشرق
المهزومين روحياً أمام الغرب).

الأهرام في ١٣/٣/١٩٨٢ ووصفه الأستاذ أحمد بهاء الدين بأنه (أكبر مفكر فرنسي معاصر) (الأهرام
في ١١/١/١٩٨٣ ووصفه الأستاذ كامل زهير في من مسكاته بترتراند رسل وساورتر وأندريه جيد
وبرناردشو واعتبره (أكبر فيلسوف في الغرب الآن) (الجمهورية في ١١/٣/١٩٨٣ .

(اللاحضاري) ، المتدهور^(١) بسبب بعدهم عن الإسلام من ناحية، ويسبب الغزو الاستعماري الشديد الوطأة بجناحيه العسكري والشقافي الذي كان يبغي القضاء على (الشخصية الإسلامية) ومحوها وتفريغها من عقيدتها وحرمانها من شريعتها لكي تتحول إلى مسخ مشوه لا هو شرقي إسلامي ولا هو غربي أوروبي ، وقد كادت فرنسا تنجح في تحقيق مآربها في شمال أفريقيا (الجزائر والمغرب وتونس) لولا فضل الله تعالى ، ثم المقاومة الباسلة التي لم تكل ولم تفتقر بقيادة أمثال الأمير عبد القادر وعبد الحميد بن باديس وغيرهما .

ولعل روح المقاومة هذه هي التي لفتت نظر جارودي فأحس بأن أمثال هؤلاء يعيرون عن (روح) الأمة التي لا تموت بالرغم من الطعنات القاتلة التي صوبت إليها^(٢).

إنها ثورة ثقافية حقيقية لأنه لا يصحح مسارات الفلاسفة والمثقفين الأوربيين فحسب ، بل يصحح رؤيتنا نحن أيضاً إلى حضارة الغرب وقيمه إذ يجب أن نعترف بأن الكثير منا تأثروا بالثقافة الغربية ، وأخذوا ينظرون إلى التراث الإسلامي بمنظار غربي ، فحجب عنهم الرؤية الصحيحة لدينهم ومعرفة قدر أمتهم وحضارتهم كما يجب .

فهل لنا التعلم منه والإفادة من خبراته في مجال (الثقافة) والكفاح من أجل سعادة البشرية؟

سنحاول مستعينين بالله تعالى على خوض هذه التجربة في صجبة أفكاره المتمعة، وإن كنا نعتز بالتقصير في حق الرجل لأننا مهما حاولنا فلن نستطيع التعبير المتكامل عن فلسفته ، ولكن يكفيننا الاشارات والتقاط بعض الجواهر من آرائه ، ومنحاولتنا لا تغنى عن نصح القارئ بالرجوع إلى كتبه نفسها .

(١) وما أشد فطنته في اجابته علي من يسأله بسخرية: أين هو هذا الإسلام الذي تجعلونه مثالياً علي الخريطة؟ أجاب بقوله: نجرأوا وضعوا أصبعكم علي خارطة العالم لتبينوا لي أين هو المجتمع المسيحي؟ أو المجتمع الاشتراكي؟ ليست غايي الدخول في حرب كلامية للمقارنة بين ما حققه هؤلاء وما حققه الآخرون رغم أنه بحسب ترتيب المسئوليات والمآسي من الحروب الصليبية حتي الاستعمار ، ومن بيع الاستغلال إلي المبادلات اللامتكافئة المسببة للمجاعات . لا يجوز للحضارة الغربية والمسيحية أن تدعي أنها لعبت دور القاضي أو مدرس الأخلاق الحميدة . جارودي . الإسلام دين المستقبل ص ٧٠ .

(٢) انه يعلل حركات المقاومة للاحتلال العسكري بدافع العقيدة الإسلامية لا العاطفة الوطنية

○ حياته وأطوار فلسفته:

لا يعتبر جارودي تحولاً إلى الإسلام نقله مفاجئة من الإلحاد إلى الإيمان ، لأنه حتى عندما كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في عام ١٩٣٣ ، كان في الوقت نفسه رئيس الشبان المسيحيين البروتستانت ، وانتسب للحزب الشيوعي كمنسحق .

أما كيف يوفق بين الماركسية والنصرانية ؟ فإنه يفسر ذلك إما نظرياً حسب القول بأن الشيوعية إنجاز نصراني لمعالجة القضية الاقتصادية ، أو بأسباب خارجية مستعلقة بظروف الفترة التي عاصرها آنذاك حيث عانت أوروبا من أزمة اقتصادية كبيرة من سنة ١٩٣٣م إلى سنة ١٩٣٩م وفيها ارتفع نجم هتلر .

ولما كان أبواه ملحدين ، فإن اعتناقه للنصرانية تم باختياره وبرغبته .

وهذه اللمحة تعطينا فكرة عن طبيعة الرجل العقلية وخصاله الأخلاقية . أي بحثه عن الحقيقة مع أملة في المشاركة في حلول للأزمات الإنسانية وقد ظلت هذه الخصال معه بعد ذلك طوال حياته مما يؤكد أن سفيتته عندما رست على بر الإسلام ، فإنما كان وراءها يمسك بشراعها ويحرك دفتها برغبة عارمة للبحث عن الحق .

يقول في وصفه لتلك الفترة من حياته (وشهدت اختياري الأول - وكنت في هذه المرحلة لا أزال طالباً - ويرجع السبب في اختياري النصرانية إلى رغبتى في أن أعطى لحياتى معنى فى وقت كنا نعتقد - لشدة الأزمة - أننا نعيش نهاية العالم ، أما الشيوعية فقد كانت الاختيار الوحيد الذى يطرح بديلاً للخروج من أزمة الرأسمالية ، كما أنه كانت أفضل جبهة تقاوم هتلر والنازية فى هذه الفترة . . وفى فرنسا - على سبيل المثال - كان معظم المشتغلين بالكتابة والفنون وأساتذة الجامعات ، وحائزى جائزة نوبل : إما أعضاء فى الحزب الشيوعى أو أصدقاء للشيوعيين . وذلك بسبب الحالة السيئة التى نشأت عن أزمة الرأسمالية وتيار المقاومة لنازية هتلر) (١) .

أما الإجابة عن السؤال لماذا أسلم ؟ فإنه يقتضى استرجاع الحلقات الهامة فى تاريخ حياته ، حيث يروى لنا جارودى - أنه فى النضال ضد هتلر كلفه هذا

(١) حديثه مع مندوب مجلة (الأمة) القطرية ص ٦٦/٦٧ - جمادى الأولى ١٤٠٣هـ - فبراير سنة ١٩٨٣م .

الاختيار ثلاث سنوات من السجن والاعتقال بالمعسكرات ، وقد قبض عليه في سبتمبر سنة ١٩٤٠م بسبب جهوده من أجل النهضة الفرنسية بعد الحرب ومعارضة الحروب الاستعمارية . وقد فضل الانخراط في سلك المقاومة متعرضاً للاعتقال بدلاً من الاختيار السلبي المضاد الذي اختاره آخرون بحيث اكتفوا بعكس فوضى العصر على فلسفاتهم وسلوكياتهم استتاجاً أن الحياة ليست لها معنى أو كما قال سارتر (الحياة عاطفة غير مفيدة) .

وقد مر أن جارودي كان مقتنعاً بأنه يمكن الجمع بين المسيحية والماركسية في الحلقة الأولى من حياته: وحيث وجد اتجاهها في حياته والتاريخ مورعاً بين الإيمان الإبراهيمي والرسالة المسيحية ولكن في غياب مذهب اجتماعي مسيحي معتبر وسياسة مسيحية تسمح بالنضال ضد الفوضى ، أخذ يبحث عنه في الماركسية حيث وجد فيها منهجية لمبادرة تاريخية من أجل مشروع قادر على التغلب على التناقضات القاتلة للنظام الرأسمالي المنافس ، وكان الحزب الشيوعي الفرنسي المنافس الأكثر تصميماً للرأسمالية والنارية .

ولكن هذا الجمع في عقيدته بين المسيحية والماركسية لقي امتحاناً عسيراً على ضوء الأحداث في أوروبا ، حيث انكشف منذ المؤتمر العشرين للحزب السوفيتي وحتى غزو براغ عام ١٩٥٦م أن الاتحاد السوفيتي ليس هو الاشتراكية، كما انكشف عن طريق المجمع الكنسي ، أن الكنيسة لم تحقق الأمل الكبير في تحديث الدين كما قرر البابا جون الثالث والعشرون .

ثم وعى بعد ذلك - مع دوم ثيلدر كامارا ومع حفنة من المسيحيين والمناضلين وبخاصة في العالم الثالث - أن النموذج الغربي للنمو الاقتصادي كان أكثر خطورة بنجاحاته من اخفاقاته . وكان ذلك في عام ١٩٦٨م .

وفي عام ١٩٤٧م حوّل الحوار المسيحي - الماركسي الذي رأى أنه أصبح إقليمياً فحوّله إلى حوار حضارات . يقول جارودي (مشاكلنا كونية ، ولا يمكن حلها إلا على مستوى كونى ، متفحصين حكم الديانات الثلاث ، المستعمرة والمغربة لفترة طويلة لندرك ونعيش علاقات أخرى بين الإنسان والله - تعالى - والآخرين ، والطبيعة) .

ووعى جارودي عند دراسته للثقافات غير الغربية الامكانيات الخاصة

للإسلام ولم يكن هذا اكتشافاً مفاجئاً لأنه كان متصلاً ببحثه منذ عام ١٩٤٦م عن الحضارة العربية الإسلامية بعد لقاء فاصل مع الشيخ الإبراهيمي .
وهنا يقول جارودي (والآن بدا لي الإسلام مثل حامل إجابة على أسئلة حياتي ، لا سيما على ثلاث نقاط أساسية بالنسبة للوعي النقدي لهذا العصر :
١- لم يزعم النبي محمد ﷺ - أبداً أنه اختلق ديانة جديدة ، لكنه يدعونا إلى العقيدة الجوهرية لإبراهيم عليه السلام ، في القرآن موسى والمسيح عليهما السلام نبيان للإسلام .

٢- الإسلام لا يفصل بين علم الحكمة وحكمة الوحي . العلم الإسلامي في ذروته - في جامعة قرطبة - لم يفصل البحث في الأسباب عن البحث في الغايات . بعبارة أخرى إنه يجيب على السؤال (كيف) والسؤال (لماذا ؟) . بهذه الكيفية يصبح العلم والأسلوب في خدمة تآلق الإنسان ، وليس تحطيمه بإثارة رغباته وإرادة تسلط مجموعات أو قوميات .

وفيما يتعلق بالوحي ، فإنه لا يتعارض لا مع العلم ، ولا مع الحكمة ، لكنه يعينهما على الوعي بحدودهما ويمسلماتهما .
ويعبر جارودي عن ذلك بكلمته البليغة (الإيمان عقل بلا حدود) وبذلك يضع العلاقة بين العقل والدين في إطارها الصحيح .

٣- يسمح الإسلام بوضع مشكلة العلاقات بين العقيدة والسياسة (علاقات بين بعدين للإنسان) دون أن يخلطهما مع العلاقات بين الكنيسة والدولة (علاقات بين مؤسسين) مثلما حدث كثيراً في أوروبا وبحاصه في فرنسا

وينهى مقاله لمجلة (لوموند) الفرنسية بقوله (هذا هو معنى اختيار عقيدة (التوحيد) وهي في نفس الوقت علم أخلاق العمل ، لأن الإسلام لا يعنى الطاعة بمعنى الاستسلام ، والجبرية والخضوع (فهذا هو استسلام ، لكنه الاستجابة لنداء الله - سبحانه وتعالى - استجابة نشطة ، حرة ، ومسئولة ويعيداً عن التهكم والتهديدات ، الوصول ، مثلما كتبت ، إلى الفرح العظيم أن أظل ، بعد سبعين عاماً ، مخلصاً لحلم سنواتي العشرين) (١)

(١) مقال بعنوان (لماذا أنا مسلم) بمجلة (لوموند) الفرنسية وترجم إلي العربية وشر حريدة (الأخبار) القاهرية بتاريخ ١٩/٨/١٩٨٣ صفحة ٩ (ولم يذكر الترجمة اسمه) ويقوم من سياق حديثه أنه تعرض لتهكم والتهديدات سب إسلامه "

تصحيح الأحداث التاريخية وتقويمها :

ان جارودي مقتنع بأنه من خلال الحوار في مقدور الإسلام الأخذ بيد الغرب ليدرك الأبعاد الإنسانية والإلهية التي انشطر الغرب عنها خلال عملية تطوير قدراته للسيطرة على الطبيعة والناس^(١) فما هي جذور هذه (المعاناة) ؟

لقد ظهر عصر النهضة لدى الغرب في إسبانيا المسلمة قبل أن يظهر في إيطاليا بأربعة قرون ، وكان يمكن لهذه النهضة أن تكون عالمية ، ولكن الغرب رفض (التراث الإسلامي) فحرم على مدى قرون من خصب كل الثقافات الأخرى ، وانزلق إلى أتماط انتحارية في التنمية والتمدن .

وهكذا فإن ما شاع على أنه اسطورة ومذهب للتقدم قد أدى بالتاريخ إلى مزيد من اللالإنسانية والتقهقر^(٢)

ويوعى بالتاريخ وحركته ، تأمل جارودي الغزوات الكييرة طوال القرون الماضية التي لم ينجم عنها إلا مظاهر انحطاط كبرى نتيجة انتصار القوى المتفوقة في السلاح .

والامثلة على ذلك كثيرة منها انتصار روما على اليونان ، والهون والمغول والتر وجحافل جنكيز خان التي هدمت حضارات الصين من خوارزم إلى بلاد فارس والهند ، بين دلهى وبغداد ، كل أولئك من (مؤسسى الامبراطوريات) لم يحملوا معهم أية رسالة حضارية غنية مستقبلية^(٣) .

هل تختلف الغزوات الاستعمارية الأوروبية عن تلك التي عرفتها البشرية من قبل؟ .

إنها لا تختلف في رأيه عنها ، ولكن اختفت حقيقتها وراء شعارات خادعه وحيل لغويه ، ومثار عجبه بالألفاظ واستعمال الحيل اللغوية لإخفاء حقيقتها

(١) جارودي : ما يعد به الإسلام ص ٣٦ .

(٢) نفسه ص ٣٦/٣٧ يشرح ذلك بإفاضة حيث أباد الأوروبيون ملايين الهنود الحمر في أمريكا وخرت أفريقيا بانتزاع عشرة ملايين إلى عشرين من سكانها (وهذا يعني أن عدد الضحايا بلغ مائة مليون إلى مائتين إذا كان أسر كل أسير يكلف قتل عشرة أفراد) ثم مذابح آسيا وحرب الأفيون والمجاعات التي فتكت بملايين الهنود وماذا نري في قبيلة هيروشيما الذرية وحرب فيستام . ينظر ص ٣٨ من نفس المصدر ص ٢٥٠ حيث أورد جارودي احصائيات مذهلة عن ميزانيات التسليح بينما يعيش نصف مليار من سكان الأرض دون مستوى الفقر المطلق ؛

(٣) نفسه ص ٣٧ .

التي لا تختلف عن الغزوات العسكرية على مر تاريخ البشرية حيث توصف (بالبربرية) إذا كانت على يد الأوروبيين . بينما توصف (بالاكتشافات الكبرى) إذا تمت على أيديهم !!^(١)

ويهمنا في هذه الخدع اللفظية - سواء كانت لتصوير مراحل الحضارة الغربية داخل قارتها أو علاقاتها بغيرها من القارات - الحرص الشديد على متابعة تراثهم اليوناني والانغلاق داخل تصوراته بغير حاجة إلى اختراع لفظ (الحدائث) كما فعل البعض منا في ظل الهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية إذا ما رأينا ضرورة الحفاظ على تراثنا الإسلامي علماً وعملاً . ويبت القصيد من الحيل التي لفت نظرنا إليها جارودي وتهمنا بصفة خاصة ، تلك التي يرى فيها (الاكتفاء بمفهوم «المدينة» اليونانية) عوضاً عن القومية حيث يُعتبر (الآخرون) (برابرة) خلقوا للاسترقاق !!

○ خلاصة ما حدث إذن نتيجة عاملين :

أحدهما : شطر العلم عن الحكمة

الثاني : الإخلاص لقيم الحضارة اليونانية وتراث الأجداد^(٢) .

ويكفينا إلقاء بعض الضوء على أفكار هذا الفيلسوف الذي أخذ على عاتقه مجابهة تزيف الحقائق . ونحيل القارئ إلى كتبه التي تحتوى على كنوز من المعارف التي تصحح (الأفكار العامة التي تحملها الثقافة الأوروبية المرتبطة إلى الأسانيد الإغريقية - اللاتينية واليهودية - المسيحية)^(٣)

(١) ويرى جارودي أيضاً صور التلاعب بالألفاظ والحيل اللغوية فيما جري من تصوير المراحل التي مرت بها حضارة أوروبا ، فمن الغريب أن يطلق الغربيون اسم (النهضة) علي ذلك التوقع داخل (التصور الإغريقي) للكائن الإنساني المحيط ، وعلي ذلك الاكتفاء بمفهوم (المدينة) اليونانية عن القومية حيث يعتبر (الآخرون) (برابرة) خلقوا للاسترقاق وغريب كذلك أن يسمي (نهضة) ذلك الانحسار داخل المفهوم الروماني من الملكية والسطوة الإمبراطورية (نفسه ص ٤١) .

(٢) ويقرر جارودي أن الغرب ليس إلا حدثاً تاريخياً طارئاً بثقافته الإمبراطورية هجينة انتزعت من ثقافات سابقة عليها . ومنذ قرون ما فتئت الثقافة الغربية تدعي أنها ورثة التراثين الروماني اليوناني واليهودي والمسيحي (نفسه ص ٣٣)

(٣) الاستاذ علي مراد في مقدمة كتاب (الاسلام دين المستقبل) ص ١٩

○ منهج التفسير للتاريخ الإسلامي :

نظن أنه من الحكمة الاسترشاد برأى فيلسوفنا الضليع في فهم الماركسية مذهباً ومنهجاً . . . لنقد هذا المنهج وإقامة منهج آخر على انقاضه لتفسير تاريخ أمتنا ، وهي نقطة خلاف هامة في فهم التاريخ الإسلامي بين المسلمين والماركسيين وغيرهم من العلمانيين وأتباع الفلسفة الوضعية ، وما كان لنا الاهتمام بهذا المنحى في فكر جارودي إلا أننا نقدر أهميته في استخلاص أحد السنن الإلهية في التاريخ ، فإذا ما عرفناها أمكننا مواجهة حجج هؤلاء جميعاً، وسهل علينا الالتزام والتطبيق أيضاً لأنه بيت القصيد (١) حيث سيحول القاعدة العامة (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) سيحولها إلى منهج عملي ، محدداً الخطوات ومرشداً إلى المبادئ :

أول ما يلاحظه فيلسوفنا - وكل دارس للتاريخ بأمانة وحيدة - أن ظاهرة انتشار الإسلام لا تعلق بالأسباب التي استند إليها الباحثون الغربيون :

١- كالقول مثلاً بوقوع الجزيرة العربية على مفترق طرق الحضارات ، وفيها تم تمازج الأديان والثقافات التي لم يكن الإسلام إلا محصلة لها ومبشراً بها (٢).

ومواجهة هذا التعليل بسيط للغاية ، ذلك بأنه قد انطلقت من مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية بصحاريها وواحاتها عقيدة واحدة وروح جماعية واحدة مخالفة تماماً للثقافات الأخرى عبر ثلاث قارات من الهند إلى إسبانيا ، ومن آسيا الوسطى إلى قلب أفريقيا . فالمد الإسلامي يعد تحولاً تاريخياً بما يجوز أن نطلق عليه اليوم (الثورة الثقافية) (٣).

٢- إخضاع الشعوب بالسيف - أو القوة المسلحة . يلتبس على القائلين بهذا بسبب طبيعة الغزوات الأوروبية الكبرى على أمريكا وأفريقيا ، فيخلطون بينها وبين انتشار الإسلام .

(١) فضلاً عما يهدفه جارودي من خلال (حوار الحضارات) أن يفيد الحضارة الغربية المعاصرة أيضاً مستنداً إلى أن الإسلام سبق أن أنقذ امبراطوريات كبرى بتهافته من الفناء في القرن السابع الميلادي . فهل بمقدوره اليوم أن يأتي بحلول لهذا القلق وتلك المشكلات التي تعاني منها (حضارة غربية) ؟
(٢) جارودي : ما بعد به الإسلام ص ٤٢ .
(٣) جارودي محاضرة (حوار الحضارات) القاهرة في الاسكندرية في ٢٠/٣/١٩٨٢ ونشرتها الاستعلامات بكتيب - ص ١٤ .

٣- إن هذه الغزوات كانت تتمتع بتفوق عسكري مطلق ، قوامه المدفع والبنديقية أولاً والرشاش ثانياً ، بينما لم يكن يملك المسلمون ما يملكه الفرس والبيزنطيون - أصحاب السلطان في العالم حينذاك - من أسلحة وفتون حربية فأين أسباب القوة والتفوق العسكري ١٩

٤- استخدام المقولات (الماركسية) التي تفسر حركة التاريخ وثوراته وتحولاته بالمستوى التقني والعلاقات الاقتصادية وصراع الطبقات الناجم عنها (١).

ويرى جارودي بعد استيعابه لعقيدة الإسلام وروحه أنه من الخطأ تطبيق هذه المقولات الماركسية على هذا التقدم السريع المذهل لاتباع النبي ﷺ الذين سادوا بأقل من قرن واحد بعد وفاته ما يقارب كل العالم المعروف حينذاك ، حيث لا تتوافر العوامل التي يحتج بها الماركسيون في تفسيرهم للتاريخ التي تتوقع في (أحكام سابقة) لتقول : إنه لا شيء يولد إلا نتيجة أو محصلة لما سبقه .

٥- تفسير الفلسفة الوضعية فتتفى سلفاً كل امكانية لحدوث (الطفرة) (٢) التاريخية ، لا تغلح هذه الفلسفة أيضاً في تفسير هذا الحدث التاريخي العظيم لأنها تعجز عن فهم التغيير المفاجئ بلا مقدمات وعوامل عمدة له . إذن يبقى العامل الوحيد لهذه الظاهرة المذهلة ، حيث لا يمكن فهمها بغير (الإسلام) كعقيدة وروح جماعية مشتركة تقوم على هذه العقيدة .

والدرس المستفاد من هذا التفسير التاريخي أنه لا حاجة للمسلمين المعاصرين بالتعلل بالضعف أمام القوى العالمية . انهم في حاجة أولاً وبصفة ملحة وجوهريّة إلى مقاومة الأنفس المستسلمة للأهواء ، وإيقاظ هذه الروح التي أيقظت الأمة وكانت سبباً في انتصاراتها التاريخية الحاسمة .

لقد أجمل جارودي التعليل الصحيح وربط به طريقة العلاج في عبارة جامعة قال فيها (إن عملية الإبداع المستمرة في الكون وفي الإنسان مردها إلى تلك (الطفرات) وإلى تحدى كل ألوان (القصور الذاتي) وكل أشكال الانحطاط

(١) نفسه ص ٤٣ .

(٢) يعني (بالطفرة) التاريخية ولادة حدث جديد تاريخي مفاجئ (ص ٨٨) .

في الطاقة ، وإلى الحد من تنامي الفوضى ، التي تسود قوانين الطبيعة والتاريخ كلما استسلم البشر إلى هواهم (١)

إن هذا التفسير التاريخي الصحيح يفيدنا في معرفة أن ما حدث لماضي هذه الأمة ، يمكن أن يحدث مرة أخرى بشرط أخذها بنفس الأسباب : إنها سنة من سنن الله تعالى في المجتمعات والأمم .
○ التعريف بالحضارة الإسلامية :

يرى جارودي أن هناك مؤامرة مقصودة للتجهيل بحضارة الإسلام ، كان أصحابها يرمون من ورائها افقاد المسلمين الثقة بأنفسهم (٢)

ولعله كان مسبوقاً ببعض الباحثين الأوروبيين والأمريكيين المنصفين الذين كتبوا في تاريخ الحضارة الإسلامية ومنجزاتها بأمانة مبينين آثارها وفضائلها على الحضارة الغربية ، ولكن هذه الأصوات كانت قليلة ، وكادت تختفي وسط الموجة الطاغية التي تنكر أي فضل للإسلام وتجعل أوروبا مركزاً للعالم تاريخياً وجغرافياً ، مثلما فعلوا بتقسيم التاريخ إلى قديم وأوسط وحديث ، وتحديد مكانة البلاد والقارات الأخرى حسب خريطة أوروبا فأطلقوا أسماء الشرق الأوسط والأدنى والأقصى .

وإذا عرفنا مدى خضوع مناهجنا التعليمية ومصادرنا الثقافية للمصادر الأجنبية طوال فترة الاستعمار العسكري ، أدركنا كيف بذروا في نفوسنا مثل هذه التصورات لتزلزل ثقتنا في أنفسنا ، ونظل ننظر نظرة إكبار للغرب .

ولم يكن هدف جارودي إعادة الأمور إلى نصابها وإعطاء كل ذي حق حقه ، بل كان هدفه إثبات أنه بإمكان الحضارة الإسلامية أن تقدم للبشرية من جديد أجمل الخدمات كما فعلت في الماضي ، فهو يقول بهذا الصدد (إن هذه المنطلقات بتقويمها المشوه للحضارة الإسلامية لا ترمى إلا إلى إنكار أصالة هذه الحضارة وجحود ما يمكن أن تقدمه للمستقبل من ألوان العطاء) (٣)

(١) جارودي: ما يعد به الإسلام ص ٤٤ والعبارة تشرح مفهوم (الطفرة) عنده فهي لا تحدث إلا بعد عمل دائم وبذل الجهد المتواصل للتغلب على التراخي والكسل ، وتحقيق الانضباط والنظام ومغالبة أهواء النفس .

(٢) يقول جارودي (لقد كان الشاغل الأساسي للمستعمر هو أن يقوض ثقة الشعوب بماضيها: محاضرات جارودي مجلة الطليعة ص ١٣٩ سنة ١٩٧٠ م .

(٣) جارودي: ما يعد به الإسلام ص ١٨٢

وقد سلك جارودي في ذلك أقرب الطرق ليوضح بشكل قطعي وثابت فضل حضارة الإسلام على حضارة أوروبا ، فحدد خط سير العلوم التي تقدمت على أيدي علماء المسلمين وانتقلت إلى أوروبا محدداً بالإسم الجامعات التي تلقت عنهم . فقد أنشئت كليات الطب الكبرى الغربية (كلية سالون في صقلية بعد نهاية الحكم العربي وكلية بولونيا وكلية مونبيليه بفرنسا على غرار كليات الطب العربية ونحت تأثير تعاليمها . وكذلك الجامعات الأوروبية من جامعة باريس إلى جامعة أوكسفورد التي أنشئت على الطراز الإسلامي بعد ثلاثة قرون (١) .

أما حقيقة دور (روجيه بيكون ١٢١٤-١٢٩٤م) فقد انحصر في نقله للمنهج التجريبي لدى المسلمين، وكان قد تلقى علومه في جامعات إسبانيا الإسلامية . ويضع جارودي أيدينا على وثائق لا مجال للشك فيها لإثبات وقائع نقله عن علماء المسلمين ، محدداً على سبيل الحصر عالم البصريات ابن الهيثم حيث نسخ باكون بصرياته في الجزء الخامس من كتابه (الكتاب الكبير) المخصص لدراسة علم البصريات (وهذا ما جعل منه رائد الطريقة التجريبية والعلم الحديث في الغرب (٢) ، بل يورد لنا نصاً صريحاً على لسان باكون يعترف فيه باقتباساته على الأقل في ميدان الفلسفة حيث قال : (الفلسفة نابعة من الأرض العربية ، ولا يستطيع أي لاتيني أن يفهم الحكمة إذا لم يكن يعرف اللغات التي ترجمت منها) (٣) .

وقفز العلم قفزات واسعة في أوروبا منطلقاً بالمنهج التجريبي الذي تعلمه العلماء هناك من المسلمين - بينما لم يعرف اليونان هذا المنهج - ولكن جارودي يلفت نظرنا إلى ملاحظة دقيقة لا يقف عليها إلا مفكر مثله في العمق وسعة الأفق . إن من أجمل ما يلفت نظرنا إليه هو فهمه للأساس الذي قام عليه العلم عند المسلمين، فقد أقسم على مبدأ (التوحيد الإسلامي) ، فما مقصده من هذا التعبير ؟

في الطب مثلاً تظهر (وحدة الجسم الناتجة عن ترابط الأجزاء مع الكل ،

(٢) نفس المصدر ص ١٠٣ .

(١) جارودي: الإسلام دين المستقبل ٩١ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٣ .

وحدة الكائن الحي مع بيئته ومع مجموع التأثيرات الكونية ، وحدة الروح مع الجسد التي تبشر بالطب النفسى الجسمانى ، وهكذا تحتل مفاهيم التوازن والتوافق الجوهرية فى الإسلام المكانة الأولى فى نظرية الطب وتطبيقه (١)

ويانتقاله إلى (علم الفلك) يرى أنه بواسطة معرفة علم النجوم (يصل الإنسان إلى برهان على وحدانية الله تعالى وإلى معرفة حكمة الله فيما خلق) (٢).

وإذا أثبت فضائل المسلمين على حضارة أوروبا أصبح من اليسور إقناع أهلها بأنه بوسعهم أيضاً الأخذ بقيم الإسلام لإنقاذ حضارتهم ، فقد تعلموا على أيدي علماء المسلمين صنوف العلم المختلفة ، ولكنهم لم يأخذوا معها القيم والمبادئ فماذا يمنع الآن من خلال الحوار أن تستمد الحضارة الغربية من الإسلام نظرتها الثقافية ؟

إنه فى سبيل ذلك يصحح وقائع التاريخ لكى يعيد حلقاته إلى أوضاعها الحقيقية الثابتة لكل من درس التاريخ بأمانة ، فقد أثاره أن وجد قومه يروجون ويذيعون فى أوروبا أن الفترة من القرن السابع الميلادى (أى وقت ظهور الإسلام) وحتى القرن الرابع عشر - فجوة سوداء .

وقد أدى بهم هذا التصور إلى اعتبار المسيحية امتداداً للفكر اليونانى ، والقديس توما خلفاً لأرسطو ، وجاليليو فى القرن السابع عشر مطوراً لنظريات أرشميدس فى القرن الثالث قبل الميلاد !!

فكيف يتصور قارئ التاريخ أن هذا قد حدث بالفعل ؟ كيف تحذف قرونأ بأكملها من سجلات التاريخ ووثائقه المدونة المحفوظة التى تثبت وجود كيان حى ، كيان الحضارة الإسلامية بعلومها وآدابها وفنونها ، بمدارسها وجامعاتها وعلمائها ، بأممها وجيوشها ومعاركها التى خاضتها ؟

إنه لما كان من قبيل الاستخفاف بالعقول انكار كل ذلك ، فقد أعلنوا تبريراً لا يستطيع إقناع الناس حظاً من الذكاء ، إنهم فسروا هذه القفزة الهائلة من قرون ما قبل الميلاد أى القرن السابع عشر بأن الغرب كان فى عزله !!

(٢) نفسه ص ٩٤ .

(١) الإسلام دين المستقبل ص ١٠٢ .

وما أصدق حرودي في سحرته عندم يعلق علي هذا التفسير بقوله (هذه هي الأسطورة الأوني لمعتمدة علي مركريه زرو- والتي يجب تبديدها كما يطرد حلم كادب) (١)

وربما يأمل في يقاظ صاحب الحلم الكاذب ، وأن يتنبه إلي الحقيقة ويسعي إلي معرفتها بدلاً من أن يظل يغط في بومه العميق ، غارقاً في أحلامه الكاذبة .

ويقصد جارودي الغرب بأكمله .

هل يأمل جارودي في تمثيق ذلك من خلال (حوار الحضارات) ؟ .

(١) جارودي: الإسلام دين المستقبل ص ١٠٦ . ويزيح الستار عن حطة أخري كانت تتخذ لانكار دور علماء المسلمين حيث كانت اكتشافاتهم بشكل مضحك إلي هذا أو ذاك من العلماء الإغريق أو الغربيين ص ٩١ نفس المصدر .

المقومات الأساسية لكل من الحضارتين الإسلامية والغربية

عقيدة التوحيد :

(التوحيد) هو الأساس المتين للمسئولية والحرية لدى الإنسان ، ولفظ (الإسلام) ذاته يعنى (التسليم) لإرادة الله (١).

وقد استبعد جارودى التعريفات الخاطئة والأفكار المشوهة عن الإسلام فى أذهان الأوروبيين وفى كتب التاريخ وأجهزة الإعلام ، ونفى عن المسلمين الصفات التى كانت تطلقها عليهم الدوائر السياسية الغربية لأغراضها الخبيثة ، فكانت تتكلم أيام الحروب الصليبية عن (الإنسان الكافر) وأيام حرب تحرير الجزائر عن (الإرهابى) ويستطرد فى نفي الصور الذهنية المشوهة التى علقها بالأذهان هناك ، فإن الإسلام ليس تحفة يتأملها مستشرق يحكم عليها بفكرة سابقة عن تفوق الغرب ، كما أنه ليس هروباً رومانسياً صوب الغرابة ، وأيضاً ينفى أنه مجرد تفجر علمى مذهل مهد الطريق لعلوم أوروبا الحديثة .

إن الإسلام فى عبارة موجزة يعنى (أنه تلك النظرة إلى الإله والعالم والإنسان نظرة توكل إلى العلوم والفنون وإلى كل إنسان ومجتمع مهمة إقامة عالم إلهى - إنسانى متماسك يتضمن البعدين الأساسيين : التسامى والروح الجماعية) (٢).

ومفهوم التوحيد فى الإسلام سهل ومقبول ويختلف جذرياً عن التفسيرات اليونانية لمفهوم (الأقانيم الثلاثة) (٣).

وتقوم عقيدة التوحيد فى الإسلام على بديهيتين أساسيتين :

الأولى: أن وحدانية الله تعالى هى الحقيقة الوحيدة ، وذلك هو مضمون (الشهادة) التى هى الأساس المبدئى للإيمان .

البديهة الثانية والمسلم بها والقائلة بأن (محمداً رسول الله) فهى مرتبطة بالمقولة الأولى ، لأن محمداً ﷺ هو الشاهد على كل حقائق الوحي الإلهى وآياته (٤).

(١) ما يعد به الإسلام ص ٥٣ .

(٢) نفسه ص ٦٠ .

(٣) نفسه ص ٤١

(٤) نفسه ص ٥٢ .

إن التوحيد هو جوهر الإسلام وروحه ، هذا التوحيد ينمى كل (صنمية) ، وهو الأساس والمنطلق لدى المسلم المؤمن بأنه [لا إله إلا الله] .

والحديث عن (الصنمية) أو (الأصنام) يشعرنا بأن هناك لونا من التقديس لها، وهي ليست أصنام العرب في الجاهلية ، ولكنها أصنام العصر الحديث ، يحصرها جارودي في (التنمية) و(التقدم) و(الفردية) ، (تمجيد الأمة) ، أصنام القوة المسلحة والجيش والجرارة وغيرها من أصنام وطواطم ورموز مقدسة وطقوس واحتفالات (١)

وما أعمق فهمه لعقيدة التوحيد عندما يقول عقب تعداده للأصنام (المعاصرة) :

أما الإسلام فيرد علي كل تلك الأصنام بقوله كلاً ثم كلاً ، فلا إله إلا الله ، والله أكبر (٢) .

وقد ظهرت حيوية العقيدة الإسلامية أيام ازدهار الحضارة الإسلامية حيث حركت المسلمين لنشر الإسلام في العالم لإعلاء كلمة الله تعالى ، ومثلما فعلت في الماضي فإن هذه العقيدة كانت بمثابة الدرع الواقي للمسلمين في معركتهم ضد الاغتراب ، في العصر الحاضر وهي أظهر ما تكون لمن يدرس حركة التحرير الجزائرية وجهاد الأفغان ومجاهدي إيران (٣) .

وكانت عقيدة التوحيد تمثل أحد سببين لظاهرة انتشار الإسلام وإشعاعه على العالم واستمراره - لأن التوحيد في جوهره (ممارسة) تدحض الفكرة القائلة بأن الإسلام يدعو إلى التسليم والجزية . ويتمثل السبب الثاني في الطريقة الجديدة في الحياة ، أي النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المرتبطة بعقيدة التوحيد أيضاً حيث أضفت (معنى جديداً على الحياة لدى شعوب تشكو من الضلال بسبب انحلال مجتمعاتها وثقافتها وعقائدها (٤) .

(١) جارودي : ما يعد به الإسلام ص ٢٦٧ .
(٢) نفسه ص ٩١ ويتحفظ جارودي عن ذكر مجاهدي إيران فيقول (قيل استثار بعض المشايخ بالسلطة الزمنية والروحية)
(٣) نفسه ص ٥٤ .
(٤) نفسه ص ٥٤ .

- ولجارودي تحليل عميق لمغزى العبادات ، نلخصها حسب ترتيبها :
- إن الصلاة هي مشاركة الإنسان بشكل واع في تسيحة الحمد التي تربط المخلوق بخالقه .
 - والصيام هو انقطاع إرادى فى إيقاع الحياة يعتبر تأكيداً على حرية الإنسان تجاه ذاته ورغباته .
 - والزكاة ليست صدقة ، لكنها نوع من العدالة الداخلية المفروضة بحكم الشرع والانتصار على الأنانية والبخل فى قلوب أهل الإيمان وتذكيرهم بأن ثرواتهم - مثل كل شيء تعود إلى الله تعالى ولا يمكن للفرد التصرف فيها على هواه .
 - والحج يجسد فى أحد معانيه الحقيقة العالمية للأمة الإسلامية ككل (١) .

○ الثقافة الإسلامية وتطبيقاتها:

خرج إلينا جارودي بأراء جديرة بأن توضع موضع التنفيذ من حيث تصحيح تاريخ الحضارة الإسلامية ، ومن حيث العمل على تعديل مناهج التعليم بما يوائم عقيدة الإسلام ، إحياءاً للمنهج التعليمى الذى كان متبعاً إبان ازدهار الحضارة الإسلامية .

يقف جارودي على هذه الحقيقة الاولية التى تتلخص فى أن نقط الانطلاق فى أى نوع من التعليم هو القرآن الحكيم ، لأن حكمة الإيمان تجمع كافة العلوم فى كل عضو ، لأن العلم بكل مكوناته هو آيات لله تعالى .

وبناء على هذا الفهم الصحيح ، فإن المساجد والمدارس كالجوامع تماماً ، فهى مراكز للثقافة والتعليم (حيث يبقى تعليم وحدانية الله ووحدة الطبيعة أساساً لكل معرفة . وهذه حال القيروان فى فاس والزيتونة فى تونس والأزهر فى القاهرة ، وجامعات سمرقند وقرطبة وليس هناك فاصل بين أمكنة التعليم وأمكنة البحث الأخرى سواء أكانت المرصد أو المشافى التى كانت فى الوقت نفسه كليات للطب)(٢) .

ونرجو أن يكون هذا الفهم الذى يؤيده 'لتاريخ منبهاً لنا لمعرفة انحراف

(١) جارودي : الإسلام دين المستقبل ص ٣٥/٣٦ .

(٢) جارودي : الإسلام دين المستقبل ص ٩/٩١ .

مناهجنا التعليمية الحالية عن طريقة المسلمين أيام حضارتهم حيث رسخت وحدة التعليم المرتبطة بالعتيدة ، رسخت الإيمان وجعلت من العلوم المختلفة مسالك لمعرفة المسلم بربه عز وجل وتعميق إيمانه ، فازدهرت العلوم والمعارف لأن طلب العلم أخذ طابع العبادة ، وصار علماء المسلمين بهذه الطريقة اساتذة العالم .

أما مناهجنا الحالية فهي منقولة تكاد تكون حرفياً من مناهج التعليم الغربي في العلوم التجريبية والفلسفة الغربية والقانون والنظم وغيرها ، فلا عجب أن تخرج أجيالاً ضعيفة أو مشرمة العتيدة .

العلم الغربي والتنمية الغربية :

وقد كنا قبل قراءة بعض كتب جارودي نظن أن العلم لا دين له ولا جنسية له ، وهذه القاعدة صحيحة في مجملها إذا ما عرفنا أن العلم كمحصلة جهود علماء مختلفين ، ينسب إلى بعض الأفاذ منهم ، ولكته في النهاية يعرف بفروعه كالطب والهندسة والكيمياء والفلك والصيدلية وهكذا . لكن جارودي يفاجئنا بهذا التمييز الذي انفرد به فيما نعلم ، حيث ميز بين (العلم الإسلامي) و (العلم الغربي) فكيف حدث هذا ؟

نعود بذاكرة القارئ إلى ما أثبتته فيلسوفنا باستقراء التاريخ أن العلم بمعناه التجريبي قد نقله الغرب عن الحضارة الإسلامية ، ولكنهم هناك في أوروبا اكتفوا بالمنهج وطبقوه ، وبتتاج قرائع العلماء فتقلوها واستأنفوا البحث العلمي بعدها ، ولكنهم لم يأخذوا (الحكمة) . بعبارة أخرى أخذوا الوسائل ولم يبحثوا في الغايات .

ويشرح لنا جارودي هذه الفكرة بناء على القاعدة المنهجية التي انطلق منها المسلمون فتميزوا عن غيرهم ، إنه يرى أن العلم عند المسلمين بدأ من محاولة فهم الإنسان واحتياجاته وأهدافه .

ونقل الغرب العلم والمنهج التجريبي ولكن تحولت وجهته وغاياته على أيدي علمائه لأنهم نزعوا منه (الحكمة) .

يقول جارودي بسخرية لاذعة (علمنا الذي ندعوه بصلف «العلم» بدلاً من

أن نسميه بكل بساطة «العلم الغربي». (١)!!

وربما يقصد اتجاه العلم على يد الغرب إلى الإضرار بالإنسان والطبيعة .
كذلك يقدم جارودي لنا إحصائيات مفرعة بسبب اتباع طراز «التنمية الغربية»
الذي ساد في العالم أجمع منذ خمسة قرون لأنه يستهدف فقط كثرة الانتاج
لمجرد انتاج أى شيء وبأسرع ما يمكن سواء كان نافعاً أو ضاراً . ثم يخص
بالحديث اقتصاد التسليح الذي أدى بالغرب أن يتفق خلال سنة ١٩٨٢م وحده
٦٥٠ مليار دولار على انتاج السلاح ويستخلص من هذا الرقم الكبير أن معدل
ما يصبوب نحو كل إنسان على وجه الكرة الأرضية من وسائل الدمار هو أربعة
أطنان من المتفجرات!! (٢).

ومن المذهل حقاً أنه بعد الثورة الصناعية بقرنين التي تنبأ لها البعض بازدهار
غير محدود للإنسان ، مات في العالم الثالث من الجوع عام ١٩٨٠م خمسون
مليون نسمة!! (٣) ويحمل جارودي الدول الصناعية الكبرى مسئولية الفرق
الشاسع بين نمو (البعض) وتخلف (البعض الآخر) لأن تحقيق التنمية للبلدان
الكبرى (أوروبا والولايات المتحدة واليابان) ليس ممكناً إلا بنهب الثروات المادية
لثلاثة أرباع العالم .

وينجم عن الوعي بهذه الحقيقة نتيجتين :

الأولى : فضح (الأكذوبة) القائلة بفرض أسلوب الغرب في التنمية على
البلدان المتخلفة لأنه قائم على نهب ثلاثة أرباع بلاد العالم ، ولا
يمكن تطبيقه بحرفيته على جميع الاقطار .

الثانية : كلما نجم عن هذه الطريقة أزمة أو خسارة انعكس ذلك في تعميق
حدة التخلف (٤).

(١) جارودي: الإسلام دين المستقبل ص٨٨.

(٢) محاضرة (حوار الحضارات) ص ١٤/١٥ . كتاب هيئة الاستعلامات (جارودي) ويرى جارودي أنه لا
يمكن الحكم علي تطور العلوم والتقنيات في حضارة من الحضارات دون أن تأخذ بعين الاعتبار
الاحتياجات الواجب تليتها. والمنهج الثقافي في ذلك المجتمع . من كتابه الإسلام دين المستقبل ص٨٧
(٣) السابق ص١٠٧ واستند إلي قوله البيولوجي الكبير جوزيف فيدهايم في عام ١٩٦٩ (لدينا أسباب
كافية تدفعنا للاعتقاد بأن مشاكل العالم لن محل طالما أننا ننظر إليها من وجهة نظر أوروبية محضة .)
(٤) جارودي: ما بعد به الإسلام ص٤٧/٢٤٨ . وله اقتراحات مدروسة مبنية علي أرقام واحصائيات
جديرة بأن توضع أمام الاقتصاديين للبحث والتنفيذ (ينظر المصدر نفسه ص٢٥٥ وما بعدها) .

الإنسان بين الفلسفة الغربية والعقيدة الإسلامية:

انزعج جارودي من ثورات الشباب بباريس سنة ١٩٦٨م وأخذ يتأمل هذه الظاهرة التي تفجرت بحيث تبدو للناظر أنه بغير مقدمات ، ولكنه الفيلسوف المحيط بالمذاهب الفلسفية ، العالم بتاريخ الحضارات المتبين لأفة حضارة الغرب . وقف من هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر وقفة الدارس الباحث عن العلل والأسباب .

إنه يرى فيها أحد نتائج الفلسفة الوجودية التشاؤمية وربما ترجع أيضاً إلى الفلسفة (البنائية) الذي أعلن أحد فلاسفتها (موت الإنسان)^(١) .

ونميل إلى الاعتقاد بأن جارودي من خلال اسطر كتابه (نظرات حول الإنسان) - الذي كتبه في مرحلة الماركسية وكان يشفق على (الإنسان) من الفلسفة الوجودية التي استمرت مسيطرة أكثر من ثلث قرن ، التي تمثل في جوهرها صورة من صور (الفردانية اليائسة) .

وكان اشفاقه على الإنسان أشد بسبب الفلسفة (البنائية) التي تحول الفرد على يديها إلى (مجرد نقطة لقاء في كل جزء من أجزائه لما يرد عليه من

(١) وردت هذه العبارة - أي موت الانسان - في ثانيا كتاب الفيلسوف (فوكوه) الذي ظهر سنة ١٩٦٦ تحت عنوان (الانفاظ والأشياء) ينظر كتاب (مشكلة البنية) للدكتور زكريا ابراهيم ص١٣٦ - مكتبة مصر سنة ١٩٧٦ ولعل من أفضل تعريف لـ (البنوية) ذلك الذي قدمه الدكتور زكريا ابراهيم إذ يقول (والحق أن كل ما يجمع بين ليفي اشتراوس وفوكوه ولا كان والتوسير ، إنما هو ذلك المشروع العلمي الذي أرادوا تطبيقه علي معرفتنا بالانسان . . . فالقول بأن البنيوية هي - أولاً وقبل كل شئ - (ابستمولوجيا) « نظرية معرفة » لا (ايديولوجيا) (موقف عقائدي) إنما يعني أن (البنيوية) لا تزيد عن كونها مجرد محاولة علمية منهجية لدراسة الظواهر عموماً ، والظواهر البشرية خصوصاً . من وجهة نظر (البنية) سواء أكانت البنية هي (النموذج) أو البناء الصوري أم كانت مجموعة العلاقات الباطنة المكونة لوحدة أي موضوع من موضوعات العلم ، سواء أكانت (البنية) أداة فعالة ناجحة في هذا العلم أو ذلك ، أم كانت مجرد وسيلة معرفية أكثر معقولة وأشد ملائمة لمقتضي الحال بالقياس إلي غيرها من الوسائل الأخرى السابقة أو الحالية . ويرى أن البنيوية تنطوي علي منظور فكري خاص يحمل في طياته انقلاباً فلسفياً حقيقياً ويمثل ثورة كوبرنيقية من نوع جديد: نظراً لأن من شأن هذا المنظور البنيوي أن يجعل من (الذات) مجرد (حامل) ترتكز عليه (البنية) أو (البنينات) كما أن من شأنه أيضاً أن يحيل (التاريخ) إلي محض تعاقب اعتباطي لبعض (الصور) أو (الأشكال) بعبارة أخرى كما يعبر عن ذلك فوكوه أن ما قد وجد قبلنا وأن ما يدعشنا في المكان والزمان إن هو الا (النسق) أو (النظام) وفي نقد الدكتور زكريا لهذه الفلسفة يرى أن في تضاعيف هذا الاتجاه الفلسفي الجديد انكاراً لقدرة البشر علي صنع تاريخهم الخاص ، ورفضاً لكل (نزعة انسانية) ومن ثم فقد راح البعض يؤكد أن النداء الخاص الذي اتحدت عنده كلمة (البنيويين) هو اعلان (موت الانسان) ينظر كتابه (مشكلة البنية) ص٢٤ / ٢٦ .

الخارج ، من غير أن يكون في كيانه ما يسمح باعتراض هذا الوارد الخارجي وما يستعصى عليه)، وأصبحت هذه الحالة هي التي تحدد الإنسان الذي استحال إلى مجرد آلة.. (١).

وكان نقده للفلسفة (البنوية) واضحاً من خلال عرضه لها لأنها أثارت المشكلة الفلسفية التي تواجه هذا الثلث الأخير من القرن العشرين متمثلة في التساؤل عن موت الإنسان (٢).

ويظهر حرصه في الدفاع عن (الذات الإنسانية) وفعاليتها بشكل خاص في نقده للفلسفة البنوية في ثلاثة مواضع :

١- تغفل هذه الفلسفة فعل الإنسان وهو الأصل (ان البنائية المذهبية المجردة تدعى إحالة كل الحقيقة إلى الهيكل البنائي ، دون أن تصعد إلى الفعالية الإنسانية التي ولدته) (٣).

٢- إنها تلغى وجود الإنسان !! وهو لا يسلم لها بهذا الموقف المقتعل ويتهكم مما تذهب إليه . إنها (فلسفة تنادى بموت الإنسان وتقوم على غياب الذات ، إن الفرد مجموعة علاقاته الاجتماعية) (٤).

٣- ولجده أيضاً حريصاً كل الحرص على الإبقاء على (الأخلاق الدينية) لأن الفيلسوف (فوكو) قد أسقطها من حسابه . وفي هذا المنعطف من فلسفة فوكو يعبر جارودي عن أسفه الشديد معلناً عن معارضته لهذا الفيلسوف الذي (رفع كفيه استخفافاً أو باستعماله خمس كلمات فقط وهي «إذا أسقطنا الأخلاق الدينية من حسابنا» .

يقول جارودي معترضاً ومستنداً إلى التراث الديني وحقائق التاريخ الإنساني (حذف بها - أي فوكو - كل التراث المسيحي في الأخلاق ، وهو ذلك التراث الذي ملأ إلى حد كبير تلك الفترة التي وقعت بين ما أطلق عليه فوكو اسم الأخلاق القديمة - الرواقية والأبيقورية - والرفض المعاصر للأخلاق من زاوية

(١) جارودي: نظرات حول الانسان ص ٢٩٥ ترجمة الدكتور يحيى هويدي.

(٢) نفسه ص ٢٩٦.

(٣) نفسه ص ٢٩٦.

(٤) نفسه ص ٢٩٧.

البنائية المذهبية) ويصف ذلك الفعل ساخراً بأنه إجراء تعسفي بالنسبة إلى التاريخ لا يقوم به إلا (فارسي مغوار).

ثم يعود فيؤكد الحقيقة التي لا ينكرها إلا جاهل بالتاريخ (وذلك لأن فكرة الإنسان باعتباره ذاتاً لم تشطب بجرة قلم تأثير عدة قرون لا تبدو على أنها من خلق القرن الثامن عشر فقط ابتداء من روسو وكانط، بل تبدو مرتبطة أولاً على الأقل في العالم الغربي ، بتأثير الكنيسة، وربما أيضاً بدت مرتبطة بالتراث اليهودي وتأثيره على الفكر اليوناني)^(١)

ونرى أن وراء جملة الاعتراضية - على الأقل في العلم الغربي - مخزوناً من المعرفة عن العالم الغير الغربي وتراثه الأخلاقي .

ويبدو أنه كان مهتماً حينذاك بالاطلاع على تراث الإسلام أيضاً وإن لم تتضح معالمه بصورة تجعله متمكناً من اتخاذ قراره .

وهكذا أصبح الإنسان وكأنه (لعبة) في مذاهب الفلسفات المتعاقبة ، تتقاذفه أيدي الفلاسفة ، ويخضع للتشخيص والتحليل من فيلسوف إلى آخر ، لأن

(١) نفسه ص ٣٢٣ . ويتلخص عرض جارودي للفلسفة البنائية بأن المقولة الرئيسية من وجهة نظر البنائية ليست مقولة (الوجود) بل مقولة (العلاقة) والدهوي الرئيسية التي تبسناها تقوم على إثبات أولوية العلاقة بالنسبة إلى الوجود ، وأولوية الكل بالقياس إلى الأجزاء إذ لا معنى للعنصر الواحد ولا حقيقة له إلا من خلال شبكة العلاقات التي تكونه ، وماركس هو الذي وضع أساس هذه الفلسفة في تطبيقها في ميدان العلوم الإنسانية عندما كتب يقول في رسالته السادة عن فويرباخ (أن الفرد هو مجموعة علاقاته الاجتماعية . ثم تساهل قبل عرضه لتفاصيل هذه الفلسفة (هل نجد هنا بدور فلسفة تقوم على موت الانسان ، وعلى نزعة لا إنسانية نظرية ؟) ص ٢٩٧ نظرات حول الإنسان . ويمكن إجمال تصحيح جارودي لهذه الفلسفة كما يلي:

أولاً - لا بد لدراسة الإنسان من دراسة الفعل الإنساني نفسه في شموله وتطوره ، فالإنسان - وكما قال سيبياج بحق - هو المنتج لكل ما هو إنساني . أو بتعبير ماركس فمن الضروري أن لا ننسحب بوجود المنتج (بفتح التاء) وقفل الانتاج لحساب الناتج . فإذا طبقنا ذلك علي (الهيكل البنائي) فإنه كإسم - وليس فعلاً - غير منفصل في وجوده عن الناس الذين يؤدون أفعالاً .

ثانياً - يرى جارودي أن الأسس التاريخية التي أقام عليها (فوكو) نظريته الذكوية أسماً واهية جداً . كان عليه أن يعرج قليلاً علي التاريخ ويحترم الترتيب الزمني للأحداث (ص ٣٠٨، ص ٣١٧) .

ولكنه في الوقت نفسه يصرح بقبول البنائية كمنهج للكشف والتحليل تتجلي فائدته في اظهارنا علي مستوي معين من الواقع البشري والاجتماعي ، وبهذا المعني فهو وسيلة لا يمكننا تعويضها ، ولكنه يرفضها عندما تزعم أنه قد أصبحت فلسفة تقدم لنا تحليلاً شافياً للواقع البشري تحليلاً يؤدي إلي إنكار لحظة (الخلق) ولحظة (الذاتية) لأنها بهذه الكيفية تصبح (اغتراباً يجمد النشاط الإنساني) ص ٣٠٠ نظرات حول الإنسان .

آفة الفلسفة أنها لا تستقر على حال ، ولا تثبت عند فكرة (١)

إن الإنسانية - كما يذكر جارودي - قد طعنت ثلاث طعنات في الغرب ، أولها على يد كوبرنيكس ، فبعد أن كان الإنسان هو مركز العالم في النظرة التقليدية منذ بطليموس ، حوَّصرت وحوصرت أرضه التي يعيش عليها وأصبح الاثنان معاً يمثلان اليوم نقطة ضئيلة تستحق الرثاء وسط هذه المجموعة الهائلة التي لا قرار لها من الأجرام .

والثانية على يد دارون الذي استبدل بالحقبة التاريخية القصيرة التي تحدث عنها الكتاب المقدس على مدى ستة آلاف عام من الحوار بين الإنسان والله تعالى - مليونين من سنوات التاريخ وما قبل التاريخ .

والثالثة على يد التحليل النفسي عند فرويد الذي قدم للإنسان صورة قوامها مجموعة كبيرة من القوى المتباينة ، وتكونت النفس البشرية من العقد المخيفة لها وهي عقد قابلة دائماً لأن تفلت من أيدينا ويتفرط عقدها (٢) .

ونود أن نضيف ، إن كانت هذه مجرد (طعنات) للكرامة الإنسانية ، فإن الضربة القاتلة جاءت على يد (فوكوه) أحد فلاسفة البنيانية الذي أعلن عن موت (الإنسان) كما أسلفنا (٣)

الإنسان في الإسلام :

أما الإنسان في الإسلام فإنه حمل على عاتقه أكبر وأسمى مسئولية ، إنها مسئولية الوعي والإيمان إستناداً إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

(١) ومن العجب في هذا الشأن أن تعقد المؤتمرات ليعلن فيها انتقال الفلسفة من مذهب إلي آخر يروي لنا جارودي ما حدث أثناء انعقاد جلسة الجمعية الفرنسية للفلسفة في ١٩٣٧/١٢/٤ ويصفها بأنها كانت الجلسة التي تمثل بصورة ما الجلسة شبه الرسمية التي تم فيها انتقال السلطة من أيدي (الفلسفة المثالية) إلي (الفلسفة الوجودية) وقد أعلن ليون برنشفيج شخصياً في هذه الجلسة ما يلي (أنا أتحدث إليكم مدركاً أنني أتبع إلي جيل شهد أفكاراً بات من واجب جيل آخر جديد أن يأخذ علي عاتقه مهمة استمراره) من كتابه (نظرات حول الانسان) ص ٧٤ .

(٢) ينظر كتاب (نظرات حول الانسان) ص ٢٩٤ .
(٣) وتوقف قليلاً عند أحد كتبه تحت عنوان (تاريخ الجنون) . . د. زكريا إبراهيم/ مشكلة البنية ص ١٣٦ . ولا بد أيضاً من تعريف القارئ بأن أحد فلاسفة هذه الفلسفة وهو (لويس ألتوسير) انتهى به المطاف إلي قتل زوجته ودخوله مستشفى الأمراض العقلية ١٢

وفى تفسيره للشطر الأخير من الآية ﴿إِنَّهٗ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ، يقول جارودى (على الرغم من أن الإنسان قد دُلل على أنه ظالم وجاهل فقد أنيط به أن يكون خليفة الله على الأرض) (١).

ويضع فى الطرف المضاد لمكانة الإنسان فى الإسلام ، التصور (الغرى) للإنسان مستنداً إلى ثقافة عصر النهضة وشعاره أن الإنسان بما يمتاز به من عقل جبار يصير إلهاً !!!

ويرى جارودى أن هذا الشعور هو ما عناه القرآن الكريم (بالفرعونية) - أى كبر الإنسان وادعاؤه القدرة لنفسه إزاء جبروت الله - تعالى - وعظمته . كذلك يخص بالذكر الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى كتابه (حديث عن المنهج) وفيه يزعم وضع نظرية تجعل من البشر آلهة وسادة على الطبيعة . ويعلق بعد ذلك على أثر هذه الثقافة التى سادت أوروبا نحو خمسة قرون بقوله (حقيقة أن هذه النظرية قد حققت لنا قدرة هائلة للسيطرة على الطبيعة ولكنها . . أدت بنا إلى نتيجة مؤداها : أنه من فرط اعتبار الطبيعة مستودعاً للمواد الأولية ومستقراً للإنسان وفضلاته - أصبحنا من نفس هذا المنطلق فى حالة تدمير مستمر لها ، وهو عكس نظرة القرآن الكريم للإنسان باعتباره خليفة الله فى الأرض المسئول عن إيجاد هذا التوازن الطبيعى (٢)

والحديث عن مقام (خلافة الإنسان فى الأرض) يحتاج إلى إيضاح :

واتباعاً للسياق الذى التزمه علماء المسلمين من المفسرين والفقهاء والمحدثين وغيرهم ، فإننا سنبدأ من حيث بدأوا أى تفسير قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢٠] وقال تعالى : ﴿خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

وقد فسر الطبرى الخلافة بقوله (خليفة من يخلفنى فى الحكم بين خلقى

(١) جارودى : ما يعد به الإسلام ص ٢٩٦

(٢) جارودى محاضراته عن (حوار الحضارات) القاها فى الاسكندرية بدعوة من هيئة الاستعلامات فى ١٩٨٣/٣/٢ ونشرتها الهيئة فى كتيب ص ١٦ .

وذلك الخليفة هو آدم و من قال مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه ، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه ، ومن غير آدم ومن قام مقامه في عبادة الله . (١)

ويتضمن هذا التفسير ملاحظات ثلاثة :

الأولى : إن الخلافة في الحكم بين خلق الله تعالى ، أي تنفيذ شرعه منذ آدم عليه السلام ومن قام مقامه .

الثانية : يستحق الخلافة بهذه الصفة المؤمنون الطائعون الذين يتحرون العدل في الحكم .

الثالثة : لا تطلق الخلافة على المفسدين في الأرض ، إذ أن آدم عليه السلام يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً ، فأضيف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذرية خلفته دونه ، وأخرج منه خليفته .

وشذ عن ذلك ابن عربي الصوفي الفلسفي وأتباعه حيث قال بأن الخليفة هو خليفة عن الله تعالى مثل نائب الله سبحانه وتعالى ، وتفسير تعليم آدم الأسماء بالصفات التي جمع معانيها الإنسان وخلق آدم على صورته وأريد به هذا المعنى فأخذوا عن الفلاسفة إن الإنسان عالم صغير وضموا إليه إن الله تعالى هو العالم الكبير بناء على أصل فكرة الوجود (٢)

ويلاحظ أن جارودي مفتون بابن عربي ولكن لا يقبل فكرة وحدة الوجود. (٣)

ولكن علماء السنة يرفضون هذا التفسير ويستبعدونه تماماً ، لأن الله تعالى

(١) الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج١ ص٤٥٢ تحقيق محمود شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر ط دار المعارف بمصر ١٩٦٩م .

(٢) ابن مفلح : مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص٢٣ - الناشر علي رحمي - دار مرجان للطباعة بالقاهرة ١٩٨٠م .

(٣) ابن مفلح : مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص٢٣ . ويرى الشيخ النجار أن الخلافة عن الله تعالى بالمعنى الصحيح لا تتعارض مع أنه سيكون للإنسان أيضاً سلطان عليها متصرفاً في موادها ليجعلها ملائمة لحاجاته (قصص الأنبياء - مقدمة الطبعة الثانية ص١٦ - العالمية للتوزيع . ولعل تعريف الإنسان الجامع بين الروحي الأخلاقي ، والعضلي بقدراته علي البحث والاكتشاف والتصرف - هذا التعريف بقسميه هو الأساس لقيام حضارة إنسانية جامعة بين القيم والتقدم التكنولوجي ، وفي ضوء ذلك يمكن تقويم تاريخ الحضارات .

في رأى فلاسفة وحدة الوجود هو عين المخلوقات ، و يترتب على هذه الفلسفة إن الإنسان من بين الظاهر هو الخلافة الجامعة بين الأسماء والصفات ويتفرع على هذا دعوى الربوبية والإلهية المؤدية إلى الفرعونية ، وهذا باطل ولا يجوز إن يكون لله تعالى خليفة بهذا المعنى ، ويقول ابن مفلح (بل من اعتقد بالخلافة بهذا المعنى فهو مشرك بالله تعالى - ولهذا لما قالوا لأبي بكر الصديق - رضى الله عنه - : يا خليفة الله ، قال : لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله - ﷺ - (١)

والاعتراض على هذا التفسير الفلسفى ينصب على تأليه الإنسان وإعطائه نفس صفات الله تعالى ، ومن ثم عدم التمييز بين المؤمنين الطائعين والعصاة الكافرين ، إذ أن الفلسفة - فضلاً عن مخالفتها للحقيقة الشرعية والكونية - فإنها تؤدي إلى الاستخفاف بأوامر الدين وتهدم القيم الخلقية من الأساس .
وهناك أيضاً من العلماء من اعترض على تفسير الخلافة بأنها عن الله تعالى ، إذ أن الخلافة إنما تكون للنبي عن الغير ، أما لغيته أو لعجزه ، وذلك لا يجوز على الله سبحانه وتعالى فإنه الحى القيوم .

وقد فند ابن مفلح هذا الاعتراض ، موضحاً أن الخلافة بالمعنى الصحيح إنما هى بالشرط المتقدم - أى الطاعة والحكم بالعدل ، فهى ليست خلافة بسبب غيبة الغير أو عجزه لأن الاستخلاف قد يكون فى أحوال أخرى مثل :-
١- أن يستخلف المستخلف غيره امتحاناً للمستخلف أو تهديباً له .

٢- أو يستخلفه لقصور المستخلف عليه عن قبول التأثير من المستخلف ، - لا لعجزه - ومثال ذلك أن السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته ، وكذلك جعل الله تعالى الرسل بين الملك الذى هو من قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة إعطائهم ليأخذوا الحكمة ويوصلوها إلى الناس ، وبهذا الوجه قال تعالى :

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ (٢)

(١) يقول جارودي (وليس «التوحيد» كذلك دعوة إلى التسليم (بوحدة الوجود) هذه المقولة التي تتعارض مع (التسامي) وتحول دونه وتجعل العالم لدى المسلم عالماً بلا إله (ص ٥٣ ما يعد به الإسلام .
(٢) نفسه ص ٢٣

ويتبين من هذا الشرح والتفسير مدى الشروط والحدود التي وضعها أصحاب تفسير (الخلافة) بأنها عن الله تعالى ، فهي مقيدة بقيدتين :

الأول : بطاعته عز وجل وإقامة العدل بين الناس .

الثاني : إن الخلافة بهذا المضمون لون من ألوان الابتلاء والاختبار لبني آدم ليتحقق مدى عبوديتهم لله تعالى ، ومع الاعتقاد الجازم بأنه سبحانه وتعالى حي قيوم شهيد لا يموت ولا يغيب ، فلا يجوز أن يكون أحد من بني آدم خلفاً له ، فإنه لا يقوم مقامه - عز وجل - أحد . بل إنه سبحانه وتعالى يكون خليفة لغيره كما قال رسول الله ﷺ «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل» . اللهم أصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا « رواه مسلم .

كما قال رسول الله ﷺ في حديث الدجال أن يخرج «وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فأمرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مؤمن » رواه البخاري (١) .

جارودي شاهد صادق على العصر :

ألفنا منذ مدة طويلة قراءة الأوصاف النمطية للعالم المعاصر التي تعطيه لونا وردياً، وتضفي عليه من الصفات ما يخلب اللب : فهو عصر التكنولوجيا والفضاء واختصار المسافات والمعلومات وتحول العالم إلى قرية واحدة ، وعصر الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان .. إلخ .. مما دفع بفوكوياما الأمريكى إلى إعلان [نهاية التاريخ] !

وكأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فلينضم سكان الأرض إذن إلى القافلة الأمريكية لأنه هو الطريق الوحيد للسعادة والرخاء والتقدم والرفاهية !! ويفاجئنا جارودي بنظرة أخرى على الضد ولها صورة واقعية قد تنزع من النفس روح التساؤل التي تمارسها الأقلام المفتونة بالمجازات حضارات العصر ويأتى جارودي ليكشف الحقيقة إذ تحولك من (التهويمات) فى العبارات المطاطة المنتفخة كبالونات الهواء التي سرعان ما تنفجر عند أقل شكة دبوس صغير .

(١) نفسه ص ٢٣ .

ونعنى بحقيقة العالم المعاصر المتمثل فى أجهزة الإعلام التى تصنع الإنسان (المبرمج) - والاقتصاد الذى تسيره الشركات المتعددة الجنسية - والانحدار للأخلاقى ممثلاً فى المسرحيات والجنس والعنف والجريمة ويضطهد الرجل فى قلب القارة الرافعة لراية الحرية عندما (يتحدث عن الاستخدام السياسى الصهيونى لأسطورة الهولوكوستب - ضحايا اليهود فى معسكرات الاعتقال أيام هتلر - ويعزو تضخيم أرقام الضحايا إلى الخدعة « إيدولوجية لنتمويه» ومن أجل تبرير سياسة إسرائيل العدوانية التوسعية لقد نسى هؤلاء حقاً أنها صورة تدعو إلى الإكتئاب ، ولكن ما حيلتنا وهى صادرة من فيلسوف مدقق يصدك بالواقع الذى لا ترضاه ، ولكن لا يخدعك ؟

فمن أقواله :

إن هناك ٦٠ مليون هندي أمريكى تعرضوا للإبادة وأكثر من ١٠٠ مليون من السود الأفارقة نالوا نفس المصير ، وإن هناك ١٧ مليون سلاقى قتلوا فى الحرب العالمية الثانية ..) كذلك دُكت مدينتا هيروشيما ونجازاكي بالقنبلة الذرية .

ويقول عقب غارة إسرائيل على لبنان الأخيرة (مايو سنة ١٩٩٦) « أين كان هؤلاء الذين أصابهم الفزع من كتابى(يقصد كتاب الخرافات التى اسست عليها السياسة الاسرائيلية الذى عرضه للمحاكمة) وقت أن انتهالت القنابل على رؤوس المدنيين الأبرياء فى لبنان ؟ أين هم دعاة الدفاع عن حقوق الإنسان الذين لم أسمع منهم صوتاً واحداً يعترض على هذه الجرائم البشعة فى حين ظهروا فجأة ضدى وضد كتابى .(١)

● وفى نظرتة لإسرائيل يرى فيها خطورة على الالم الثالث بأكملهوليس العرب والإسلام بدليل أن ٢٠٪ من سكان العالم فى أوربا وأمريكا أصبحوا يتحكمون فى مصادر اقتصاد ٨٠٪ من سكان العالم .

● صندوق النقد الدولى الذى تتحكم فيه ١٣ أسرة يهودية ويفرض

(١)مقال جارودي يواجه الأسطورة بقلم الأستاذة زينب متصر جريدة الأحرار القاهرية ١٤١٦/١٢/٢٣ هـ
١٩٩٦ م /٥/١١ وينظر أيضاً (حوار مع جارودي) الذى أجراه الأستاذ علي الشوياشي فى باريس ونشر بمجلة (التصوف الإسلامى) بالقاهرة محرم ١٤١٧ هـ / يونيو ١٩٩٦ م

شروطه اينما شاء وكيفما يرى .

[ان إحصاءات اليونسيف تقول إن هناك ١٥٪ من أطفال العالم الثالث يموتون يومياً نتيجة عدم وجود مأكّل ومشرب وقليل من الدواء ١٥٪ من الأطفال مع عدد البالغين يشكلون ٤٥٪ من سكان العالم يموتون يومياً . . . أى أن تطور أوروبا وأمريكا جاء على حساب العالم الثالث الذي يبلغ فيه عدد الضحايا الموتى كل يومين ما يوازي عدد ضحايا هيروشيما في اليابان .

هذه هي المذبحة الحقيقية التي نتعرض لها يومياً (١)

(١) مقال جارودي يواجه الأسطورة بقلم الأستاذة زينب منتصر جريدة الأحرار القاهرية ٢٣/١٢/١٤١٦ هـ
١١/٥/١٩٩٦ م وينظر أيضاً (حوار مع جارودي) الذي أجراه الأستاذ علي الشوباشي في باريس
ونشر بمجلة (التصوف الإسلامي) بالقاهرة محرم ١٤١٧ هـ / يونيو ١٩٩٦ م .
(٢) في حديث خاص مع الأستاذ عبد الرزاق عكاشة في باريس (جريدة الأحرار القاهرية) ١٦/محرم
١٤١٧ هـ - يونيو ١٩٩٦ م .



الفصل الثاني

بعض آراء جارودي

في ضوء عقائد أهل السنة والجماعة

١ - عقيدة (الإبراهيمية) : أو وحدة الأديان.

(من هنا يذهب جارودي إلى القول بوحدة الأديان ، إذ يري الإسلام انفتاحاً شاملاً علي كافة الديانات ، التي ليست في نظره إلا لحظات من العطاء في الملحمة الإنسانية... (١))

ويفخر جارودي بأنه أسس في أسبانيا (المتحف الإسلامي - وهو المتحف الإسلامي الوحيد بها ويزوره الآن مائة ألف شخص كل عام في قرطبة ، افتتحته بندوة لأبناء إبراهيم ، وحرصت علي أن يحضره ممثلون عن الأديان السماوية الثلاثة) (٢)

وقد أسس جارودي هذا المتحف عن اقتناع بوحدة ما سماه (الأديان السماوية الثلاثة) لأنها تلتقي عند (العقيدة الإبراهيمية) نسبة إلي إبراهيم عليه السلام مع أن الحقيقة المعتبرة في عقائد الإسلام أن الدين عند الله الإسلام كما سنوضح .

إن الرغبة المخلصة عند جارودي لا تكفي للإقناع بالانطواء تحت عقيدة (الإبراهيمية) - أو إجراء (حوار بين الأديان) . وذلك في ظل التعاون الشديد والفارق الشاسع بين مكانة الكنيسة الكاثوليكية أو نفوذ الصهيونية في عالم اليوم . والقضية تحتاج إلي شرح وبيان :-

فنعرض أولاً لمخالفة الفكرة لعقيدة التوحيد الإسلامية ثم نلقي الضوء علي الواقع السياسي والديني في عالم اليوم .

الدليل الأول : نقض فكرة الإبراهيمية لمخالفتها لعقيدة التوحيد الإسلامية :

وربما أتت الشبهة من اعتقاده أنهم جميعاً يتمون إلي إبراهيم عليه السلام .

وقد فات جارودي معرفة الآيات القرآنية وهي قاطعة الدلالة ، لا تحتل أي

تأويل ، ونحيله إلي أحد التفاسير المعتمدة عند أهل السنة :

قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) ص ١١٧ من كتاب (لماذا أسلمت ؟) بقلم محمد عثمان الخشت - كتبة القرآن ٦ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
 (٢) حوار مع روجيه جارودي (أنا واليهود والصهيوية والإسلام) حوار أجراه في باريس ، علي الشوياشي ونشر بمجلة (التصوف الإسلامي) بمصر العدد (١) السنة (١٩) [محرم ١٤١٧هـ - يونيو ١٩٩٦م .

طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿ [آل عمران: ٨٣] وقد أورد القرطبي في تفسيره لهذه الآية قول الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه - وهم يهود - اختصموا مع النصارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أينا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبي - ﷺ - كلا الفريقين برئ من دينه . فقالوا : لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك ، فنزل - ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ؟ ﴾ يعني يطلبون^(١) وفي قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] .

قال الإمام القرطبي :- نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة ، وبين أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركاً والحنيف : الذي يوحد ويحج ويضحى ويختن ويستقبل القبلة^(٢)

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقد أتى القرطبي بقول أبي بكر الأنباري تفسير الرسول - ﷺ - لهذه الآية أنه كان يقرأ (إن الدين عند الله الحنيفية لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية) .

وفي تفسيره قوله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ ﴾ قال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى وهو توضيح لنصارى نجران ، وقال الربيع بن أنس: المراد بها اليهود ، ولفظ الزبير أوتوا الكتاب يعم اليهود والنصارى أي ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يعني في نبوة محمد ﷺ ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ يعني بيان صفته ونبوته في كتبهم^(٣) . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

(١) تفسير القرطبي ص ١٣٦٩ طبعة دار الشعب بالقاهرة جمادى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ أغسطس سنة ١٩٦٩ م .
 (٢) نفسه ص ١٣٥١ .
 (٣) تفسير القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » ط دار الشعب ص ١٢٨٥/١٢٨٦ جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ يوليو ١٩٦٩ م .

فى تفسير القرطبي :

قال مجاهد والسدى نزلت هذه الآية فى الحارث بن سويد أخو الجلاس بن سويد ، وكان من الأنصار ، ارتد عن الإسلام هو واثنى عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً ، فنزلت هذه الآية ، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . وروى ذلك عن ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات (١)

يتبين لنا مما سبق أن الرسول - ﷺ - جاء بالرسالة الأخيرة والمصححة للانحرافات التى وقع فيها اليهود والنصارى .

وكان جارودى قد تبيّن له من دراسة العقائد الدينية وقت البعثة المحمدية (إن المضمون الدينى لدى ظهور النبى - ﷺ - كان خليطاً من الطقوس اليهودية الجاهدة ، مضافاً إليها تعاليم الطوائف المسيحية التى لا يفهمها عامة الشعب والتى هى بعيدة كل البعد عن حياتهم الداخلية (٢) وكذلك المعتقدات الوثنية الخالية من أى معنى إنسانى .

الدليل الثانى: من الواقع العملى أى السلوك الدينى والسياسى وتاريخياً فكيف يعود جارودى فيؤحد بين هذا الخليط من العقائد ؟! فى عالم اليوم.

لانظن أن جارودى بلغت به السذاجة حدّاً يجعله يقتنع بأن مجرد انشاء متحف بهذا الشكل سيؤدى تلقائياً الى إزالة الخلافات والعوائق المترسبة طوال القرون ، المقترنة بأعمال القتل والإبادة للمسلمين ، ونكتفى بذكر أشعها بما حدث باسبانيا تاريخياً وما حدث ويحدث فى العصر الحالى باليوستنة وفلسطين والأقليات الإسلامية فى دول العالم (المتحضر) وليتها كانت أعمالاً عفوية وتعبيراً عن انفجارات نفسية بسبب العوامل العنصرية أو الرغبة فى السيطرة السياسية والاقتصادية الطارئة، بل تدعمها عقائد وأيديولوجيات ثابتة، وإلا فكيف يفسر جارودى (على سبيل المثال لا الحصر) المشروع الذى قدّمه الفيلسوف (ليبتز) إلى الملك الدولة: لويس الرابع عشر محدداً الغرض [استعادة بحر الإسكندر فالسيطرة على البلاد الإسلامية من خلال اغتصاب (هكذا)

(١) نفسه ص ١٣٧٠ .

(٢) ص ٣٠ من كتاب (الإسلام دين المستقبل) ترجمة عبد الجيد بارودي - دار الإيمان بيروت - دمشق - سنة ١٩٨٣ م .

مصر وكر الإسلام ودعوة (دار جنسون) إلى حلف مقدسى أوروبى لغزو الأراضى الاسلاميه و تمسيح المسلمين .^(١) ويضيف مؤلف كتاب (صلبية إلى الأبد) وقائع المؤتمر المخالفة لروح العصر بقوله (وعلى نقيض ما بدا من تحرر الفكر وبخلاف المنتظر من روح العصر . . تحاول اوروبا أن تحقق ما فوته عليها القرون تستوحى حقدتها الموروث ، ففي مدينة برلين سنة ١٨٧٨ م وحال مائدة (مؤتمر برلين) كان أو رويو العصر الحديث يخفون وراء الظهور صليب التعصب الذى كان أبأؤهم فى العصور الوسطى يبرزونه على السطح . . . واتفقوا على (تشريح) الفريسة الإسلامية ^(٢) النفوذ الدينى والسياسى للكنيسة العالمية .

يقول د/ فؤاد حسن فخر الدين العالم الأندونيسى الخبير بطرق التبشير التى عانت منه طوال عصر استعمار بلاده (أكثر من ثلاثة قرون) .
 (والمسيحية دولية تنظمها الفاتيكان والبابوية) ^(٣) ولم يؤسس هذه الفكرة من فراغ ولكن بناء على متابعة الهيكل التنظيمى العالمى للفاتيكان حيث عين البابا (فى كل الأمكنة الاستراتيجية بابوات فلهم مظهر حكومى ويخضعون لحكومة الفاتيكان فحسب ، ويمكن القول انه حكومة داخل حكومة فى تلك الأمكنة) ^(٤)

ويستطرد فى وصف الفاتيكان بما له من قوة سياسية واقتصادية حيث له تمثيل دبلوماسى يقوم على رعاية ابناء الدين المسيحى ويعتبر هؤلاء الأتباع أنفسهم رعايا الفاتيكان الروحانيين يخضعون لها قلبا وقالبا .

كما للفاتيكان ثروات لا تعد تنفق منها بسخاء فى التبشير والتنصير ، ولهم فى جبال الهند وفى أذغال اندونسيا وأحراش أفريقيا وإيربان الغربية . لهم هناك قوة جوية وشبكة مواصلات ^(٥) |

ويستعراض الدكتور فؤاد فخر الدين لتاريخ الاستعمار منذ القرن السادس

(١) ص ٤١١ / ٤١٢ من كتاب « صليبية إلى الأبد » ، عبد الفتاح عبد المقصود . .

(٢) نفسه ص ٢٢٨ / ٢٢٩ ط الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ م .

(٣) ص ١١٧ من كتابه (مستقبل المسلمين) مطبوعات الشعب . سنة ١٣٩٦ هـ - ١٩٦٧ م بالقاهرة .

(٤) نفسه ص ١٣٥ . (٥) نفسه ص ١٣٥ / ١٣٦ .

عشر الميلادى وما فعلته هولندا والمجلترا وفرنسا والبرتغال والدانمارك فى البلاد المستعمرة يبين له كيف اندمجت المسيحية مع الاستعمار بحجة عالمية رسالة الكنيسة بمقولة :

[لنا الرجاء العظيم والغيرة القبلية لتوصيل الإنجيل وتقديم رسالته الى كل أجزاء العالم] (١) وقد اقتبس المؤلف مقتطفات من كتاب : جون فوستر ترجمة القس مينس عبد النور ، قصة انتشار المسيحية بالاشتراك مع المجمع المسيحى للشرق الأدنى ، مطبعة النصر بشبرا ص ١٠ - ١٣ .

وفى تحليل الدكتور فؤاد فخر الدين لكتاب (انتشار المسيحية) يذكر أن مؤلفه تحدث فى نهايته عن « الكنيسة العالمية » فيقول (لقد تبعنا أخبار امتداد المسيحية فى بلاد آسيا وأفريقية وكما اشتركت كنائس أوروبا وأمريكا فى هذا العمل شاركت أيضا فى التطورات الأربعة التالية) . (٢)
ويقصد بالتطورات الأربعة :

١- النمو الطائفى بالنسبة للعالم ، حيث تأسس سنة ١٨٧٥م الاتحاد المسيحى العالمى ويتبعه مؤسسات طائفية مما يؤدي إلى نمو فى عضوية الكنيسة .
٢- حركة الطلبة على نطاق عالمى .

٣- المؤتمرات المرسلية العالمية بدأت بمؤتمر أدنبره ١٩١٠م الذى عين لجنة تتابع أعماله . . ثم أقيم مؤتمر فى أورشلم عام ١٩٢٨م كان سبب قيام حركة ملكوت الله فى اليابان وبرنامج السنوات الخمسين فى الصين .

٤- مجلس الكنائس العالمى الذى أقام مؤتمر بين أحدهما عام ١٩٢٥م والثانى عام ١٩٢٧م ثم وُضعت الخطط ١٩٣٩ لتأسيس المجلس فى جنيف . . وفى عام ١٩٤٨م اجتمع مجلس الكنائس العالمى فى امستردام لوضع دستوره الأول . . وقد حضر ممثلون من كل قارة ، ومن كل دولة تقريبا ، وقد تكلم الدكتور جون مكاي رئيس مجلس المرسلات العالمى فى الاجتماع الأول لمجلس الكنائس فقال [اليوم نجد كنائس منظمة فى كل بلاد العالم ما عدا

(١) نفسه ص ١٨٥

(٢) نفسه ص ١٣٢ / ١٣٣ وينظر ص ٤٢ أسباب الضعف الإسلامى .

التبت وأفغانستان والعربية السعودية . . لقد صارت الكنيسة مسكونية لأول مرة في التاريخ بالمعنى الحرفي ، تصل حدودها إلى كل أقاصى المكونة . . (١)
لم يعد الدين اذن - كما يذكر الدكتور حامد ربيع متقوقعاً داخل الصومعة - أو المتحف الذى يفخر بإنشائه جارودى - بل خرج يياشر دوره بفاعليه ملحوظة في السياسة المعاصرة :

دور الدين في السياسة المعاصرة :

يقول الدكتور حامد ربيع :

[إيناع الظاهرة الدينية في العالم المعاصر لا يعود الى الأعوام الأخيرة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، فالدين خرج من قوقعته التي فرضها على الفكر السياسى للثورة الفرنسية . . ومنذ ذلك التاريخ تكاملت نظرية كاثوليكية واضحة للحركة السياسية . محورها استمرار الثقاليد السابقة من حيث الفصل بين المنظمات السياسية والمنظمات الدينية ولكن من جانب آخر خلق الأدوات المدنية التي تعمل بانصياح كامل لارادة الكنسية . ثم جاءت معاهدة اللاتيران لتخلق شخصاً دولياً باسم مدينة الفاتيكان] . . إلى أن يقول: (والكاثوليكية السياسية ظلت في تقدم مستمر حتى استطاعت أن تصبغ العالم الغربي بنفوذها واراقتها) . .

وعن اليهودية يرى أنها (استطاعت أن تخلق الصهيونية السياسية ومن خلالها تصل الى بناء الدولة الاسرائيلية .

ولكنه في أسى يحاول ايجاد مكان للاسلام بين هاتين القوتين بعد هذا التطور ، فيقرر ان الاسلام ظل هو الدين المتوقع حول نفسه) (٢) .

وبعد أن يرصد بعلمه الغزير ووعيه السياسى الكم الاسلامى وخصائصه على مستوى العالم ، ينتهى الى القول بأنه (من الصعب الحديث عن تنسيق أو تخطيط لسياسة اسلامية على مستوى الفاعلية الدولية) .

(١) ص ١٩٣ نفسه مع اختصار المادة من ص ١٨١ الى ص ١٩٣ .

(٢) ص ٢٤ من كتابه . الاسلام والقوى الدولية دار الموقف العربي سنة ١٩٨١ م بالقاهرة .

كما يرى انه لا يوجد ما يسمى بالجبهة أو الكتلة الاسلامية (١)
وأمام هذه الدراسة المستوعبة ، من عالم السياسة المخضرم لايسعنا إلا هذا
التعليق الموجز :

لا نظن أن جارودي بدوره غافلا عن استخدام الدين فى السياسة على
النطاق الدولى . وبهذا الواقع المتردى لأحوال العالم الإسلامى يصبح من
السذاجة الاقتناع بان مجرد إنشائه للمتحف باسبانيا سيؤدى دوراً فعالاً فى
الحوار بين الأديان بل.. ، سيصبح بمثابة نوع من التخدير والاستسلام للقوى
الدولية التى تملك عناصر القوة لتوجيه والسيطرة الاقتصادية والسياسة
والإعلامية . ان اقتراح الفيلسوف الكبير من توحيد الأديان غير مقنع فى ظل
حركات العداة الشديدة للإسلام والمسلمين ، فضلا عن الاختلاف الجذرى فى
العقائد والقيم والأهداف كما شرحنا وإلا ، فهل المطلوب الجلوس على مائدة
الحوار بينما يرفع المتدينون فى الغرب السيف على الرقاب ؟ ويذبح المسلمون
بأيدي الصرب فى البوسنة بينما العالم المسيحى يتفرج . بل يشمت - إلا قلّه
ضئيلة لا تكاد تُذكر ، لأن ضميرها مازال ينبض بالحياة ؟ !

خير لامة الاسلام أن تعرف جيّدا الأخطار المحدقة بها ، فتتقظ وتتأهب ،
وتلم شملها حكماً وشعوباً ودولاً ، خير لها من أن تقبل التخدير بالكلام
المعسول والعهود والمواثيق تحت شعار وحدة الأديان والحوار بينهما - بينما
السيف مُصلّت على رقبتها للإجهاز عليها ، وإلا فإن التاريخ ملئ بنقض
العهود ، والمثال الصارخ ما حدث فى إسبانيا عندما حوَصر المسلمون بمدينة
غرناضة ، وطلبوا الصلح ، وعقدوا مواثيق مع أعدائهم بعد أن مكنوهم من
غرناضة ، ولكن النصارى نقضوها واحدا فواحد(إلى أن آل الأمر بهم على
التنصر .. وقد صدر الأمر من سلطان النصارى بقتل جميع المسلمين إلا من
تنصر (٢) وفى ضوء ما تقدم نعود فنسأل :

كيف يعيش المسلمون فى ظل عقيدة وحدة الأديان التى يتبناها جارودي

(١) نفسه ص ١٣٢ / ١٣٣ وينظر ص ٤٢ أسباب الصنف الإسلامى
(٢) مفتريات اليونسكو على الاسلام ، محمد بن الله السمان ص ٤٩ ط المختار الإسلامى بالقاهرة
١٣٦٩ هـ / ١٩٧٦ م ..

وهم الضحايا في كل بلاد العالم والآخرين يملكون السلطة والقوة والمال والسيطرة الدولية ؟ ا ولا يخفى عليه الصهونية التي تعيش أرمي عصورها وهو أحد ضحاياه ، ونفوذ الفاتيكان وحملات التبشير التي يربعاها ويدعمها ؟ كيف يدور الحوار الديني أو الحوار بين الحضارات والمسلمون مستهدفون للمذابح ؟ وحملات الطرد، والدعايات الكاذبة العدائية ، وأخيراً نقول : إن نداء عقد مؤتمرات للأديان ليس ابن اليوم ، إذ ظهرت الحاجة إليه لمجابهة الماركسية الملحدة وخطر قيام الحروب الذرية والنوية . ونذكر على سبيل المثال الاقتراحات العملية التي قدمها العلامة الشيخ محمد أبو زهرة حينذاك ، وهي أكثر قبولاً لواقعيتها من أحلام جارودي الوردية .

ونلخص الأفكار الرئيسية للشيخ أبو زهرة التي بدأها بتعريف التدين الحقيقي (بأنه الذي يشعر كل إنسان في الأرض بأن فوقه قوة قاهرة عالية رحيمة تحب السلام بين الناس ، وتدعوا إليه وتحملهم عليه ، وتشعر الناس بالمحبة الإنسانية السمحة الكريمة ، وتحث على الائتلاف الإنساني العام ، وتجعل المودة بين الشعوب هي الرابطة . .) (١)

وفي ضوء هذا التعريف يرى إبعاد اليهود من الحوار لأنهم يتدينون بالعداوة الإنسانية وتخريب الأرض على من فيها انتقاماً عن أذلوهم وفرقوهم في الأرض ، وأولئك هم أكثر اليهود .

ويعد إسقاطهم من الحساب تصبح الأديان التي تتقاسم العالم أربعة : الإسلام والمسيحية والبوذية والهندوسية .

ويعد استعراض روح السلام والمحبة التي تدعو إليها هذه الأديان اقترح الشيخ أبو زهرة استبعاد قضايا أصل الأديان وتاريخها وحقائقها وباطلها وصادقها من النقاش ، وإنما (ينحصر النقاش فيما اتفقت عليه الأديان من وجوب إنقاذ الإنسانية مما عساها تتردى فيه من تخريب وفساد ليس له نظير) ، واقترح المبادئ الآتية في المؤتمر الجامع للأديان الأربعة وهي باختصار :

(١) إنه من يحارب بالادوات النووية يعد خارجاً عن الدين غير مؤمن به .

(١) مجلة (لواء الإسلام) - ربيع الأول سنة ١٣٨٠هـ - أغسطس سنة ١٩٦٠م ص ٤١٨ .

(ب) وإن الإنسانية جميعاً سواء في أصل الحقوق والواجبات ، فلا فرق بسبب اللون ولا بسبب الجنسية ولا بسبب العنصرية ، ولا بسبب الاختلافات الدينية .

(ج) وإن العدل شريعة خالق السموات والأرض وإن الله تعالى كتب العدل على نفسه ، فلا يصح للشعوب أن يعاونوا أحداً على ظلم ، ولا أن يسعوا لتأييده . .

(د) وإن الوطنية الجامعة التي تستبيح الرذيلة في الخصوم لا يقرها دين من الأديان التي تدعو إلى المحبة والرحمة فلإن كل الأوطان أرض الله تعالى . . وليس معنى ذلك محو الوطنية ، بل وضعها في إطار الإنسانية والعدالة وظل الحضرة الإلهية والإيمان بالله تعالى وحماية خلقه . .

(هـ) وإن الوفاء في المعاهدات يجب أن يحترم إذا كانت المعاهدات بنيت على العدالة وعلى الاختيار الكامل ، كما إنه يجب أن تكون المعاهدة مع المغلوب قائمة على العدل ، بل على الرفق ، فلا يقال في السياسة الدينية «ويل للمغلوب» ولكن يقال : العدل مع المغلوب شريعة الأديان وشريعة الإنسان وشريعة الفضيلة . .

(و) وأن ينظر إلى الإنسانية على أنها وحدة . فالناس في لغة الأديان أمة واحدة ، كما قال القرآن الكريم ﴿وكان الناس أمة واحدة﴾ وإذا كانت الإنسانية وحدة كاملة ، وإن ظهر اختلاف الألوان والألسنة والأوطان ، فإن خيرات الأرض كلها للإنسانية كلها ففائض كل دولة من أغذية هو للإنسانية المحرومة منها ، وحرام في كل دين أن يحرق قوت أو يُرمى في البحر ، وطائفة من بنى الإنسان تريده قوتاً ، أو يصعب عليها الحصول على ما تحتاج إليه من قوت . . وعلى الإنسانية أن تتضافر على بقاء العامر وإحياء موات الأرض وتدفع غائلة الجوع عن بعض بنى الإنسان ، فلإن ذلك ما تدعو إليه الأديان ، وقد قال محمد ﷺ « ما مسلم يزرع زرعاً أو يفرس غرساً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كتب له به صدقة » (١)

(١) الإسلام والغرب للدكتور محمود رزوق ص ٩٠ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

هذا هو المؤتمر المقترح من المنظور الإسلامي الصحيح .

وعلى نفس المنوال ، نسج الشيخ جواد الحق رحمه الله (شيخ الأزهر السابق) الذي عايش مآسى المسلمين فى البوسنة والهرسك وفلسطين ولبنان وكشمير والفلبين وغيرها الإسلامى بما فيه ، ومحسناً بنبض آلام المسلمين وجروحه ، وعلى درجة عالية من الحنكة والوعى السياسى عندما قال فى ختام كلمته لمؤتمر برلمان ديانات العالم الذى عقد فى شيكاغو بأمريكا فى شهر أغسطس سنة ١٩٩٣م قال :

(لتذكر جميعاً أنه لا يمكن أن يكون هناك سلام واحترام بين الأمم والشعوب والديانات المختلفة فى نفس الوقت الذى يُذبح فيه أتباع إحدى الديانات الكبرى من أتباع دين آخر . . وإذا سارت الأمور على هذا النحو، فلا معنى لشعار تعايش الأديان. ولا جدوى من المناذاة بإرساء مبادئ السلام بين الشعوب والأمم ما لم يحترم دين كل أمه من قبل الأمم والشعوب الأخرى)^(١) ولولا خشية الإطالة لأنينا بتحليلات الدكتور زينب عبد العزيز لخطاب بابا روما بكتابتها (تنصير العالم) إذ درست الخطاب بعناية فائقة ، وشرحته وشرحته ، ورائدها - كما أوردت بصدد كتابها - قول الشاعر الفرنسى بيجى «من يعرف الحقيقة ولا يجاهر بها بأسلوب عنيف فهو يتواطأ مع الكذابين والمزيفين» .

وتوجه الدكتور الفاضلة تحذيرها من (مصيدة) الحوار للمسلمين والمسيحيين الشرقيين معاً لتفادى اقتناصهم داخل (العقيدة الكاثوليكية الفاتيكانية) ، مؤكدة أن اللجوء إلى الحوار هو وسيلة يتم بها عملية التنصير (بأقل قدر ممكن من المقاومة) . . أى اللجوء إلى الطعم الجديد الذى يُستخدم كغطاء ، وعلى حد قول أوليفيه كليمون «إن هذا الحوار - التبشير عبارة عن عملية تغليف مذبذبة عصرية لحبة قديمة كانوا يفرضونها قهراً على الشعوب فيما مضى»^(٢) .

(١) ص ٩٧ من كتاب (تنصير العالم - مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثانى) للدكتور زينب عبد العزيز أستاذ الحضارة ورئيس قسم لرنسى بكلية الآداب - جامعة المتوفية (ط دارالوفاء المنصورة). ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
(٢) نفسه ص ١٠٤ .

وترى أن رسالة البابا الأخيرة في عام ١٩٩٣ م ما هي إلا خطوات تنفيذية لقرارات المجمع الفاتيكاني المسكوني الثاني عام ١٩٦٥ م (بالتضافر مع المخابرات المركزية الأمريكية والموساد ، وهو: ضرب اليسار في الثمانينات ، وضرب الإسلام في التسعينيات ، وتنصير العام تحت لواء كاثوليكية روما عند بداية الألفية الثالثة) (١)

والحصيلة النهائية لهذا الكتاب الفريد تجعلنا نؤكد ضرورة قراءته لكل من تراوده نفسه قبول الحوار ، على الأقل ليكون على حذر .

كما أننا أصبحنا بعد الاطلاع على الجنايا التي كشفتها العمالة الفاضلة أكثر تقديراً لموقف الشيخ محمد أبو زهرة الذي كان سابقاً لوضع الحدود والشروط وهي وحدها التي تصلح مدخلاً للحوار .

وأخيراً ، فإننا نضم صوتنا إلى صوتها الذي يصرخ بين السطور بقولها (فإلى الذين يغوصون في الاستسلام بدرجة تستفز العقل والضمير ، وإلى الذين يساعدون على اختراق الأمة العربية والإسلامية ، وإلى تجميع القضايا وخلط الأوراق تحت رعم الحوار والسلام ، لا يسعنا إلا أن نقول : اتقوا الله في أنفسكم وفي دينكم الذي تساعدون على اقتلاعه) (٢)

(٢) نفسه ص ١١١ .

(١) نفسه ص ٤١

ب- السلفية

بلغت دهشتنا غايتها عندما طلع علينا جارودي بكتابه (أصول الأصوليات والتعصبات السلفية) الذي ساوي فيه بين من سماهم المتعصبين السلفيين ، ووضع في وصف واحد التكنوقراطيين أو الستالينيين أو المسيحيين أو اليهود أو المسلمين محذراً منهم جميعاً لأنهم يشكلون في رأيه أكبر المخاطر علي المستقبل! وفيما يتصل بالمسلمين كتب بحثين أحدهما بعنوان (التعصب السلفي الإسلامي الجزائري) ، والثاني بعنوان (التعصب السلفي الإيراني).

ولاول وهلة يتضح افتقاد الدقة في الوصف والحكم لأن المعلومات الأولية التي لا شك يعرفها جارودي أن مذهب السنة السائد في الجزائر يختلف عن مذهب الشيعة في إيران وأن (السلفية) في عقائد الإسلام وحضارته لها مدلولها الخاص ، كما سنوضح بعد قليل ، حيث سندلل علي تعريفها الذي كان غائباً تماماً عن ذهن فيلسوفنا الكبير عندما صاغ تعريفه بقوله (فالتعصب السلفي يتمثل في تعريف عقيدة دينية أو سياسية أو غير ذلك في الشكل والإطار الثقافي أو الذاتي الذي كان لها في فترة زمنية سابقة من تاريخها ، وربطها بهذه الفترة ، أي هي الاعتقاد بحقيقة مطلقة ثم فرضها) (١)

وقبل الدخول في المناقشة والتوضيح نحب أن نسجل رأيه الصحيح في نظرتة للحضارة الإسلامية إذ يقول بالحرف الواحد (لا يمكن أن تقوم نهضة للإسلام في يومنا هذا إلا إذا اكتشفت كل أبعاده ، تلك التي صنعت عظمته في بدايته وفي فترات ازدهارها حتي القرن الثاني عشر الميلادي) (٢).

أما التعريف الصحيح المطابق لفهم الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة فقد حدده الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ، في الصيغة المحبوبة علمياً كالآتي (السلفية ليست فرقة من الناس تسكن بقاعاً من جزيرة العرب ، وتحيا علي نحو اجتماعي معين . إن السلفية نزعة عقلية وعاطفية ترتبط بخير القرون ، وتعمل ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية لإعلاء كلمة الله تعالى ، ودون نظر الي عرق أو لون ، وفهمها

(١) أصول الأصوليات والتعصبات السلفية - ص ٩ مكتبة الشروق يناير سنة ١٩٩٦ م
(٢) نفسه ص ٤١ .

للإسلام وعملها له يرتفع الي مستوي عمومه وخلوده وتجاوبه مع الفطرة وقيامه علي العقل (١)

ونأتي أيضا في هذا التمهيد لنعرض لرأي أوجست كونت الفيلسوف الوضعي الشهير صاحب فكرة تدرّج المجتمعات من الطور الديني أو اللاهوتي ثم الي الفكر الفلسفي ثم الي العلمي الوضعي ، ويقتضي سياق مذهبه أن المرحلة الأخيرة هي مرحلة النضج والتقدم النهائي للإنسانية ، وأن أي (رجوع) إلي مرحلة سابقة يُعدّ من باب (السلفية) كأنه نوع من النكوص عن الرحلة المتطورة التي بلغت البشرية .

واصطبغت بفلسفته الكثير من الدراسات الدينية والفلسفية والتاريخية الحضارية ، وكانت لها نفوذها علي عقول الكثير من المثقفين ، وربما تأثر جارودي أيضا بفلسفته عندما حكم علي (السلفية) في الأديان والأيدولوجيات بعامه .

وفي الدراسة المبكرة للدكتور رشدي فكار تابع حياة كونت وخرج لنا بحقيقة كانت غائبة عنا إذ اكتشف أن كونت استثنى الإسلام في نهاية حياته من قانونه المعروف .

قال كونت :-

« يمكن للشرق الإسلامي أن يحقق المرحلة الوضعية النهائية (يعني العلمية) بسرعة فائقة حينما يتجه مباشرة الي الهدف مختصرا الطريق بالقفز من الحالة الأولى (اللاهوتية أي الدينية) الي الحالة الثالثة (الوضعية) مستفيدا من تجارب الآخرين) مستندا إلي مميزات يتفرد بها الإسلام خاصة التسامح وما سماه (عبقرية الإسلام) أي تأكيده المكانة السامية للفكر والعقل في المبادئ الإسلامية .

وهكذا استوعب كونت المرحلة الأولى المثالية لتطبيق الإسلام في المجتمع الأول، وهو ما نعينه بقولنا السلف الصالح فهما للآية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾

المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴿ [التوبة: ١٠٠] وأخذ يقيس عليها

(١) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص (١٢٠/١٢١) ط دار الانصار بالقاهرة ١٤٠١ هـ للشیخ/محمد الغزالي .

المجتمعات الاسلامية بعدها. ويسجل الدكتور فكّار في دراسته الجديدة عن كونت عندما توسع في الإطلاع علي الإسلام ، يسجل ما رآه في نبينا محمد ﷺ (رائداً) عريقاً من أسمى رواد الروحانية ومتعرفاً علي الشئون الدنيوية أيضاً استطاع أن يكمل في زمن بسيط ما لا يستطيع غيره إتمامه في قرون طوال، خصوصاً اتجاهه نحو العالمية في العصور الوسطي عبر حلول معقولة ومقبولة) ويقول الدكتور فكّار (لقد حاول كونت علي ضوء ما لديه من معلومات ، أن يقدم حكماً علي تطور المجتمع الإسلامي ، فبينما يتحمس لمرحلته الأولى يتحفظ كثيراً علي « التخريج الفارسي للإسلام » والاتجاه به نحو المفاهيم الفارسية الخاصة (ربما يعني التشيع) ، ونفس التحفظ والنقد لمجده بالنسبة للمرحلة العثمانية (صداقته لرشيد باشا لم تحمل دون نقده للعثمانيين) و« كونت » يري أن العثمانيين (الأتراك) رأوا في الإسلام أولاً وقبل كل شيء دين سيادة مع أن طبيعة روح الإسلام الأصلية التسامح والمساواة (التعبير حرفياً لكونت) فالإسلام لا يسمح فقط بالتفريق بين الأجناس البشرية بل لا يسمح أيضاً بالتمييز بين السيد والمسود ، ولعل هذا ما ساعد علي قيام امبراطوريات اسلامية مزجت بين أجناس مختلفة من البشرية ، فكانت خير طلائع للدين العالمي ، في شكل واقعي ملموس وليس مجرد دعوة إليه (١).

وهذا الرأي جدير بالتقدير من فيلسوف وضعى غير موصوف (بالمثالية) ، ويدعم الموقف الصحيح من مفهوم السلفية الاسلامي التي جددت روح الإسلام ممثلاً في قيم التوحيد ، وتقدير الفكر والعقل ، وتحقيق المساواة بين الأجناس اجتماعياً وعالمياً. وسنعرض في الفصل القادم لحقيقة السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية :

(١) كتاب (دكتور: رشدي فكّار ونهاية عمالقة في حضارة الغرب) إعداد وتقديم : سيد أبودومة ط مكتبة رهبة بالقاهرة ١٩٨٩-١٤٠٩م صفحات ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥



الفصل الثالث

حقيقة السلفية

بين

العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية

إن مصطلح السلفية — من وجهة نظر المؤرخين الغربيين — وعلى رأسهم أرنولد تويني — له مدلوله الخاص ، كما سنوضح بعد قليل ، ولا صلة له بمثله في دائرة الفكر الإسلامي ، لا من حيث المصطلح أو المضمون .

فمن حيث المصطلح الإسلامي ، أصبحت « السلفية » علماً على أصحاب منهج الإقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى ، وكل من تبعهم من الأئمة ، كالأئمة الاربعة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد وعبدالله بن المبارك ، والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن ، وشمل شيوخ الإسلام المتبعين لطريقة الأوائل ، مع تباين العصور وتفجر مشكلات وتحديات جديدة أمثال ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وكذلك أصحاب أغلب الاتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والقارة الهندية ومصر وشمال أفريقيا وسوريا (وكانت ذو أثر واضح في تنقية مفاهيم الإسلام ودفعه الى الامام لمواجهة الحضارة والتطور ، والكشف عن جوهر الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة القادرة على الحياة في كل جيل وكل بيئة) (١)

ومن حيث المضمون تعنى «السلفية» في الإسلام التعبير عن منهج المستمسكين بذروته الشامخة وقيمته الحضارية ، كما توجهنا إلى النموذج المتحقق في القرون الاولى المفضلة ، وفيها تحقق النموذج العلمي والتنفيذ الفعلي ، ومنه استمدت حضارة المسلمين أصولها ومقوماتها ممثلة في العقيدة خضوعاً للتوحيد ، وبياناً لدور الانسان في هذه الحياة وتنفيذاً لقواعد الشريعة الالهية بجوانبها المتعددة ، في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وراوِبط الاسرة وفضائل الاخلاق .

والسلفية في الإسلام كمصطلح تعنى أيضاً في مدلولها الخاص - الاقتداء بالرسول ﷺ ، فان أمتنا تنفرد بمزية لا تشاركها فيها أمة أخرى في الماضي أو

(١) انور الجندي - الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التفريب ص ٤٩ مطبعة الرسالة بدون تاريخ .

الحاضر أو المستقبل - تلك هي تحقق القدوة في شخصه ﷺ - إذ حفظت سيرته كاملة محققة كافة تفاصيلها، فنحن نعلم عنه كل شيء وفقاً لما نقل إلينا في كتب وعلوم مصطلح الحديث بأدق منهج علمي عرفه المؤرخون .

وهكذا فإن السيرة النبوية حية في كياننا ، ونحن نعيشها كل يوم ^(١) وهي تمثل القمة للسلفيين ، وتطبيق الشريعة الاسلامية تمتد على طول الزمن لا يتعلق بمصر دون آخر ، بل إن كل جيل من المسلمين مطالب بتنفيذ أصولها النصية مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص عند مواجهة أحوال الحياة المتغيرة كما هو معروف في أصول الفقه .

وقد ظهر المصطلح في مقابل انحرافات كانت تأخذ مجراها في تاريخنا العقدي والثقافي ، فبدأ لتمييز المثبتين للصفات الإلهية أي بينهم وبين النافين لها ، كما ذكر مؤرخ الملل والنحل - الشهرستاني - وظهر أيضاً للتعبير عن أهل الفقه والحديث للمفارقة الواضحة بينهم وبين المتكلمين أو الصوفية أو الفلاسفة . كما أصبح علماً في العصر الحديث على أهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب وعندما اشتدت المقاومة ضد الاستعمار الغربي ، فإن مما يلفت النظر أن ماسينيون - المستشرق الفرنسي الشهير - وكان تابعاً لوزارة الخارجية الفرنسية - أخذ يرقب الحركة السلفية بواسطة الامام عبدالحميد بن باديس ، ثم حذر قومه في فرنسا مما سماه بحركة (السلفيين المتشددين) وما هي في حقيقتها الا انتفاضة اسلامية تبغى التخلص من نير الاستعمار الغربي ، وقد أعطت هذه الحركة لمفهوم السلفية بعداً جديداً في عصرنا الحاضر ، إذ أخذت على عاتقها - كما فعلت الاجيال السابقة من أصحاب نفس المنهج - المحافظة على أصالة الامة الاسلامية في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها حتى لا تتميع أو تهتز تحت ضربات الغزو الاجنبي .

ولم تكن هذه المرة الأولى لظهور السلفيين بهذا المظهر ، إذ حدث أيام الاشتباك العقلي مع خصوم الاسلام ، وكان الاسلام حينذاك في الموضع المهاجم المكتسح بفضل استمساك أتباعه به ، ويملكون العناصر الحضارية الاسمي ، إذ عندما نقل الفكر الغربي اليوناني ، أخذوا في دراسته وتحليله

(١) حسين مؤنس / الحضارة ص ١٢٥

ومناقشته ورد أباطيله ثم قيس ذلك كله بمقياس العلم الإسلامي ومحك النقد الديني ، فما وافقه قبله البعض وما خالفه رفض (١) وكان الرفض ظاهراً أكثر من غيره في دائرة علماء السلف محافظة على شخصية الأمة وأصالتها .

أما هذه المرة - أي في العصر الحديث - فقد جاءنا الغرب فاتحاً مستعمرأ وحاكماً مستعبداً ففرض علينا لغته وفلسفته وتشريعاته ونظمه في الاجتماع والسياسة و الاقتصاد والتعليم والتربية .

وكان من أبعد الخطوات أثراً في حربه ضدنا أن أخذ علماءه في قلب صفحات تاريخنا لاستخراج كل ما يسئ إلى الإسلام الذي عرفه سلفنا الصالح وطبقوه ونقدوه ، فأعلوا شأن الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والمعتزلة والصوفية المنحرفين والفلاسفة وغيرهم ، إلى أحياء أو تمجيد ومدح نحل ومذاهب مختلفة ، إما بأسمائها المعروفة بها كالاسماعيلية أو الباطنية أو تحت أسماء جديدة كالبهائية أو القاديانية والعلوية ، وبعث الألحاد من جديد وراء ستار العلمانية والماركسية والداروينية، مع نشر فكرة وحدة الأديان أو التقريب بينها وإزالة الحواجز بين الحق بصورته الوحيدة ، والباطل بصوره المتعددة المتضاربة .

وإزاء كل هذه الخطط والمحاولات ، فلن يظهر ريف هذه العقائد والنحل إلا بطريقة السلف أنفسهم ، مهما تغيرت الأزمنة والأعصار، لأنها طريقة موضوعية ذات أسس علمية منهجية ، تعتمد على النصوص الشرعية الموثقة ، فهناك مسائل ثابتة لا تتغير كفطرة التوحيد ومخاطبة العقول البشرية للبرهنة على النبوات بعامة ونبوة نبينا محمد ﷺ بخاصة ، والرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في كل ما انحرفوا به عن الشرع المنزل ، مع دحض شبهات الملحدين والمشركين .

هذا فضلاً عن ثبات الفضائل الأخلاقية ، وقواعد التحليل والتحريم في المآكل والمشرب والملبس ، وتنظيم العلاقات الاجتماعية في الأسرة والمجتمع ، وإقامة العلاقات الدولية مع سائر الأمم وفقاً لأصول الشرع . ولقد أصبحت الحركة السلفية ، هي الحركة الكبرى التي جددت الدعوة الإسلامية ، ولولاها

(١) علال الفارسي / دفاع عن الشريعة ص ٨٧ . منشورات العصر الحديث - بيروت ١٩٧٢م

لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحيا وفكريا الى امد بعيد^(١) ولأن نشرح
مدلول السلفية من وجهة النظر الغربية

السلفية وفق التصور الغربي:

إن أردنا الوقوف على مدلول (مصطلح السلفية) الشائع في مغزاه
التاريخي والحضاري فإن أمامنا التعريف الذي ارتضاه المؤرخ الانجليزي الشهير
«أرنولد توينبي» وستدرك بعدها الى أى حد امتد مفهوم السلفية الينا فأصبح
البعض منا يردده بنفس التعريف والتصوير . وسناقش رأيه لنصل الى مفهوم
السلفية في تاريخنا الاسلامي .

يرى المؤرخ البريطاني أن السلفية تعنى :

أولاً: ارتدادا من محاكاة الشخصيات المبدعة المعاصرة إلى محاكاة أسلاف
القبيلة، وبعبارة أخرى تعد السلفية سقوطا من الحركة الدينامكية للحضارة الى
الحالة الاستاتيكية التي يشاهد عليها الانسان البدائي في الوقت الحاضر .

ثانياً : محاولة من المحاولات تبذل عند حدوث توقف اضطراري لحركة
التغيير، ويتتج عن المحاولة ردائل اجتماعية تتوقف خطورتها على مدى
نجاحها .

ثالثاً : أنموذج لتلك المحاولة الخاصة بـ (تثبيت) مجتمع منهار متحلل .

وهذا التثبيت هو الغاية المألوفة لواضعي (نظم المدينة الفاضلة) .

ويستطرد ليشرح المجالات التي تعبر فيها السلفية عن نفسها ، فهي في
مجال السلوك تظهر في :

أولاً: في شكل نظم متكلفة وآراء تتشبث بالمصطلحات الفارغة أعظم من
تغييرها عن نفسها في شكل أساليب لا تتصل بالوجدان .

ثانياً: تعبر عن نفسها في المجال اللغوي في معان تتصل بمنهاج ونمط
يتسمان بالسفسطة .

ثالثاً: وفي ميدان الدين ، يسهل على المراقب الغربي الحديث ملاحظة نزعة

(١) أنور الجندي = الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا ص ٣١ الدار القومية للطباعة والنشر -
القاهرة ١٣٨٥-١٩٦٥م .

السلفية في نطاق حدود بيئته الاجتماعية الذاتية. فان الحركة الانجليزية الكاثوليكية تقوم مثلاً على الاعتقاد بأن الاصلاح الديني الذي تم خلال القرن السادس عشر ، وحتى صورته الانجليزية المعتدلة ، قد ذهب في تطرفه مدى بعيداً ، ومن ثم تهدف الحركة الى استعادة استخدام آراء وطقوس كانت شائعة خلال القرون الوسطى ثم هجرت وألغيت أربعمئة سنة الغاء نعزوه الى عدم التبصر^(١) وخضوعاً للمفاهيم الغربية الشائعة انساق البعض وراءها ظناً أنها مطابقة للتصورات الماثلة في المجتمعات الاسلامية، فمالوا الى الغض من أصحاب الاتجاه السلفي في الاسلام ونقروا الناس منه وقاموا بحملة تشهير ظالمة ضده.

وقامت معركة حقيقية (بين الذين يحافظون على دينهم ولغتهم وتقاليدهم وبين الذين عادوا من أوروبا وقد فتتهم بريقها فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفرون الناس منه)^(٢) ثم فشلت العصية لما هو وارد من هذه البلاد تحت دعوى التجديد، وأراد أصحابها تغيير كل شيء في الدين واللغة والادب ونظم الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، بدعوى نبذ القديم والبالي والأخذ بالجديد والحالي، وفيما يتصل بالعقيدة والدين، فقد ذهب أحد أصحاب فكرة التجديد الى وصف الدين الحى الحق بأنه ذلك المتحقق في الشعور المتجدد المتطور يتخذها وفقاً للازمان ، وتبعاً للطابع العنصرى المركب في هذه الأمة ، ولهذا فكل دين في أصله رمز قابل لما لا نهاية له من أنواع التفسير التي يبلغ الفارق بين بعضها حد التناقض .

وكلما تعددت التفسيرات لهذا الرمز ، وبلغ التعدد مرتبة عالية من الاقتراق الرفيع، كان هذا من أوضح الشواهد على أن هذا الدين حى وخلقى بالبقاء. وبناء على هذه النظرة للدين في صورته المتطورة المتجددة الرمزية المتناقضة، تصبح النزعات السنية أو السلفية وما اليها من حركات تحاول أن تأسر نفسها في ريقه الرمز بمعناه الظاهر الأولى ، تصبح عند صاحب هذا الرأي ، علل وأزمات نفسية في تاريخ الحياة الروحية لدين ما ، وعليه أن يبرأ

(١) توينبي= مختصر دراسة التاريخ ج ٣ ص ٢٦٠ و ص ٢٨٥ و ص ٣٩٨
(٢) د. محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢ و ص ٢٣٢ مكتبة الاداب بالجماميز - القاهرة ط ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م

منها قدر المستطاع حتى يستأنف تطوره الثرى فى مجال الروحية العليا . (١)
وقد كان الإسلام هدفا - وما زال - لحمولات شديدة تختفى وراء هذه
المصطلحات وأمثالها للنيل من مقوماته الراسخة المحددة للحلال والحرام والخير
والشر والفضائل والردائل ، فاخترعت بدلها ألفاظ تنقصها المدلولات
والضوابط كالتقديم والجديد والرجعية والثورية واليمين واليسار ، والشبثات
والتطور ، والظاهر والباطن ، والحقيقة والرمز أو التأويل وكلها تتأرجح
متذبذبة ذات اليمين وذات الشمال كبنود الساعة لا تستقر على حال !
وتجددت المعارك وليست أثوابها متعددة منذ حملات الغزو الاستعماري فى
مطلع القرن الحالى مما دفع بأصحاب الاتجاه السلفى لمواجهة ابطل مفعولها .
ومن هؤلاء الأمير شكيب أرسلان الذى علق على محاولات المتغربين
بقوله :

قلما رأيت من هذه الفرقة إلا الأعداء الفارغ والنزوع إلى الثورة على ما
يسمونه بالتقديم ، وهم ينسون أن هناك مبادئ ثابتة وبديها ليس فيها قديم
وجديد ، وان الإثنيين والإثنيين أربعة من مائة ألف سنة فلا نقدر أن نعمل على
ذلك ثورة ، وأن المقولات العشر مما لا تتناوله هذه الثورة ، وأن الثورة إنما هى
واجبة على الجهل والوهم لا على الحق والعلم (٢) وعلى ذلك فان وحدة الدين
كما عرفه سلفنا وكما ترشد إليه أصوله نابع من وحدة عقيدية واتفاق الغالبية
عليها .

وعلى العكس فان الصور المتعددة لم تظهر الا عندما انقسمت الجماعة
الاسلامية الاولى الى فرق وأحزاب ، كل حزب بما لديهم فرحون ، فتفتت
كيان الامة وكسرت شوكتها .

ومنذ انشق الصف الاسلامى فى عصوره الاولى ، ظهرت الخوارج والشيعة
والقدرية والمذاهب الكلامية والفرق الصوفية والمدارس الفلسفية وكلها ذات
تفسيرات تتفاوت فى انشاقها عن عقيدة الاسلام ذات اليمين وذات الشمال .
ولم يبق العقيدة الاسلامية على أصالتها ونقاوتها ولمعناها الا الطائفة الظاهرة

(١) دكتور عبد الرحمن بدوى : شخصيات قلقة فى الإسلام - المقدمة صفحة (ى) .
(٢) من كتاب مصطفى صادق الرافعى . . تحت راية القرآن ص ٣٩ المكتبة التجارية ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م

على الحق ، التي ظلت تعض بالنواجذ على الكتاب والسنة بالطريقة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه .

ويوضح لنا ابن تيمية مكانة الصحابة وسلامة منهجهم وتكامله بقوله :

(فهم صفوة الامة وخيارها المتبعون للرسول ﷺ علما وعملا ، يدعون الى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث الله بها رسوله ﷺ ، وتدبر القرآن وما فيه من البيان ويدعون الى المحبة والارادة الشرعية وهي محبة الله وحده وإرادة عبادته وحده لا شريك له بما أمر به على لسان رسوله)^(١) .

ولقد تتابع السلف جيلا بعد جيل آخذين بطريقتهم ، ووقف علماؤهم بصلاية آراء كل محاولات التجزئة واليتر والتأويلات الكلامية والتخريجات الفلسفية والتفسيرات الرمزية الباطنية ، فلم يهنوا ولم تفتقر لهم همة .

وما على القارئ لكي يعرف هذه الحقيقة ، الا قراءة بعض صفحات التاريخ اذ يعثر على خيط طويل يمتد فيربط في سلسلة متماسكة منذ الأوائل حتى عصرنا الحاضر ، وقف علماء السنة بالمرصاد ، مبينين الانحرافات عن الاصول الاسلامية ، وربما لا تسمح لنا هذه الدراسة بالتوسع في بيان ذلك الا بالقدر الذي يحقق توضيح الفكرة التي نحن بصددها ، وهي أن الإسلام ظل محفوظا في الأصلين العظيمين : الكتاب والسنة ، وأن تلقية وتطبيقه بمنهج السلف هو الذي حفظه حتى الآن وحارب علماؤه كل انحراف من شأنه تقويض أركان المجتمع الإسلامي ومن هنا عارضوا نفاة القدر بسبب إنكارهم لأصل من أصول الايمان المثبتة للعلم الالهي الازلي المطلق ، وأيضا حاربوا نزع الجبرية التي ساهمت في ركود الهمم وإضعاف الارادة الانسانية وتغليب سلبيتها على جانبها الايجابي النشط .

ووقف السلفيون إزاء تجزئة عقيدة الاسلام الى مجرد دوائر عقلية - لدى المتكلمين والفلاسفة - أو عاطفة وتفسيرات وجدانية ذوقية لدى الصوفية وما جهود العلماء الكبار منذ عصر الصحابة والتابعين أمثال :

الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . الى أمثال ابن حنبل

(١) ابن تيمية « النبوت ص ١٥ نشر المطبعة السلفية ومكنتها القاهرة ١٣٨٦ هـ

وابن قتيبة والدارمي والشافعي ومالك وابن خزيمة والشاطبي وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وابن الوزير اليماني وغيرهم . . . ما جهود هؤلاء العلماء الا عمل من أعمال المحافظة على الإسلام في مصادره وعقيدته وعباداته ومعاملاته وانظمته وفقاً لطريقة السلف ، فحال ذلك دون إدخال أية تحريفات كما حدث في اليهودية والنصرانية ، بل استطاعوا فضح كل المحاولات التي بذلت من هذا القبيل ، وأصبحت مؤلفاتهم معبرة عن الاصاله لإظهار المخالفين المتدعين وتوعية المسلمين من خروجهم عن المنهج الاسلامي الصحيح. فقد وقف الفقهاء والمحدثون في وجه الدولة العباسية في عنفوان قوتها عندما رأوا ما يؤخذ على بعض خلفائها وولاتها فقد ضرب أبو حنيفة على القضاء ، وأوذى الامام مالك لنشره الحديث (ليس على مستكره طلاق) . عندما أرغم المسلمون على حلف يمين الطلاق بمناسبة البيعة للمنصور .

وصمد الامام أحمد صموداً جباراً إزاء محاولات تفسير الاسلام تفسيراً كلامياً مخالفاً لنصوصه ابان محنة خلق القرآن .

وجاء ابن تيمية ليجدد فهم الإسلام على طريقة السلف في وقت يظن المتصفح لتاريخ عصره أن عقول المسلمين قد توقفت وجمدت على آراء علماء الكلام والفلاسفة وشطحات مع فرق الصوفية ، وكان الجميع قد نسوا أن القرآن الكريم مازال غصاً طرياً بين أيديهم ، وأن سنة الرسول ﷺ تغنيهم عن الدروب التي سلكوها .

ثم رأينا في العصر الحديث كيف قام الإمام محمد بن عبد الوهاب للاطاحة بمظاهر الشرك والوثنية لتخليص عقيدة التوحيد من جديد بعد أن ران عليها دنس الجاهلية مرة أخرى ، وتابعت معظم الحركات المعاصرة في العقيدة ومسالك الجهاد حتى يمكن القول أن دعوة الامام تشكل الأثر الحاسم فيها جميعاً ، لأنها بدأت بالقاعدة التي انطلق منها أي عقيدة التوحيد .

السلفية والحضارة الاسلامية:

إذا كانت الحضارة الاسلامية ما زالت قائمة كمجتمعات حية في رأى توينبي ، فما الذي يمنع تحركها لقيادة العالم من جديد؟ انه وفقاً لنظريته عن عدم موت الحضارة بالمعنى العضوي وانما تختفي وقد يكون هذا الاختفاء لمدة

قرون ثم تعود للظهور كما يؤمن كبير مؤرخي العصر في أعماقه بأن الحضارة الاغريقية هي السلف الحقيقي للحضارة الاوروبية الحديثة وهو يرى أن الحضارة الاغريقية قد اختفت ثم عادت ملامحها للظهور في الحضارة الاوروبية الحديثة. (١)

ولكن الحضارة الاسلامية - باعترافه - لم تمت عضويا بعكس الاغريقية ويرجع الفضل في بقائها الى بقاء العقيدة وظل دور السلفيين باقيا في احياء عقيدة التوحيد وفهم الاوائل للاسلام لان الاسلام - كما يذكر توينبي - قد اعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادي في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية. (٢) واستمرت السلفية في المحافظة على التوحيد في جوهره النقي فمنعت تردى العقيدة الدينية الى صورة من صور الوثنية لان آية عقيدة دينية في رأيه - تواجه التردى في عبادة الاوثان وان العقيدة الدينية لتعرض خاصة الى الانزلاق في هذا المنحدر المؤدى الى جهنم بعد ما تكابد الونأ من الضربات القاصمة ، وخاصة اذا جاءتها من أناس يتمون اليها. (٣)

أما الضربات القاصمة في تاريخنا ، فقد كان مصدرها أناس يدعون أنهم يتمون الى الإسلام عامة أو التشيع خاصة ، بينما حملوا معاول الهدم ليغيروا معالمة من جذورها ، ولا يستطيع المسلم معرفة خدعهم وحيلهم الا بوقوفه على الطريقة السلفية في فهم الاسلام والعمل به .

ولهذا فقد هتك علماء السلف أستارهم مع تعدد أجناسهم وكثرة فرقهم اذ تشمل (طائفة من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والاسماعيلية ونحوهم ، كابن سينا وأمثاله وأصحاب رسائل اخوان الصفا ، والعبديين الذين كانوا بمصر من الحاكمة وأشباههم ، وهؤلاء كانوا يتظاهرون بالتشيع وهم في الباطن ملاحدة) (٤)

(١) لمي الطيحي . . أنولد توينبي ص ٢٩ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة العدد ١٤٨ -

١٩٦٧/٢/٢٢ م .

(٢) مختصر دراسة التاريخ ج٣ ص١٦٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١٠/٢١١ ترجمة فؤاد محمد شيل - جامعة الدول العربية ص ط١٩٦٤ م .

(٤) ابن تيمية : كتاب الصفة ج١ ص١/٢ تحقيق د. محمد رشاد سالم ط شركة مطابع حنيفة بالرياض

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

وقد سبق أن قلنا إن مفهوم السلفية كمنهج في الإسلام ، لا يعنى جيلا أو أجيالا مضت ولكن تتسع دائرته فتشمل الحاضر والمستقبل أيضا لانه لا يتعلق بالزمن والعصور لكن باتباع الطريقة الواحدة الثابتة حتى لو كان أصحابها افرادا قلائل ، فمن دواعى بقاء الحضارة الناجحة استطاعة القلة من الطلائع مجابهة التحديات. (١)

هدف السلفية وضوابطها :-

ان الضوابط والمقاييس الثابتة التى تحددها السلفية كقيلة بتخريج طلائع أفذاذ لقيادة الحضارة الاسلامية من جديد كلما خفت ضوؤها، وهم يشكلون باجتهاداتهم سلسلة متصلة من الجهود المبذولة والمحافظة على طريقة الاتباع - لا التقليد ومقوماتها الراسخة الجامعة بين اخلاص التوحيد لله تعالى وحده ، والايمان بالوحي طريقاً لمعرفة عالم الغيب، مع استسلام الانسان فى شئون حياته لما أمر به الله فى شئون حياته بواسطة خاتم الرسل والانبياء ﷺ وتحرير العقول من الوثنيات وإصر الشرك لتتفرغ فيما يعود على الانسان بالنفع فى ميادين المعارف والعلوم ووسيلتها النظر والتجربة مع ثبات الفضائل الاخلاقية والآداب الانسانية .

وهنا تظهر لنا ضوابط السلفية فى نصوص كثيرة سنختار منها ما يشرح معنى الصراط المستقيم ، لاننا نلاحظ فى التصور الاسلامى أن أصوله وقواعده محددة وفق هذا الصراط المستقيم ، وهو المانع من التذبذب أو الارتداد أو الدوران فى حلقات مفرغة قد توحى بها اشكال أخرى غير الخط المستقيم كالمخطوط المتعرجة أو أشكال الدوائر والمنحنيات مثلا اذا جار لنا التشبيه بالاشكال الهندسية للتوضيح والبيان .

قال تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢]

وفى شرح معنى هذه الآية نستدل بالحديث : عن جابر قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فخط خطا هكذا أمامه فقال (هذه سبيل الله) وخطين عن

(١) كولن ولسون سقوط الحضارة ص ١٥٠ . ترجمة أنيس ذكى حسن ط دار العلم للملايين - بيروت ، نوفمبر سنة ١٩٥٩م .

يمينه وخطين عن شماله وقال (هذه سبل الشيطان) ثم وضع يده في الخط
الاطول ثم تلا هذه الآية (١)

وفي حديث آخر سأل رجل ابن مسعود رضى الله عنه ، ما الصراط
المستقيم؟ قال تركنا محمد ﷺ في أدناه وطره في الجنة وعن يمينه جواد وعن
يساره جواد ، ثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت
به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ثم قرأ ابن مسعود
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بِيَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ
وَصَّاكُمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢).

وبعد أن عرفنا هذا الصراط ، فقد أصبح لزاما علينا أن نعرف السائرين على
هذاه وهذا ما أخبرنا به الرسول ﷺ قال (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلى ،
الا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم انها تخلق
من بعدهم خلوقا يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدتهم
بيده فهو مؤمن ومن جاهدتهم بلسانه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الايمان
حبة خردل) رواه مسلم .

فاذا أضفنا اليه حديثا آخر أمر فيه الرسول ﷺ باتباع سنته وسنة الخلفاء
الراشدين ازداد الأمر وضوحاً .

قال العرياص بن سارية : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا
فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا
رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد اليينا؟ فقال (أوصيكم بتقوى
الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا فانه من يعش منكم بعدى فسيري اختلافا
كثيرا فعليكم بسنتى وإياكم ومحدثات الامور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة
ضلالة) رواه أبو داود .

وابقاءً على هذا العهد نستطيع أن نتحقق تاريخيا - وفي العصر الحاضر أيضا
من الدور الذى أداه السلف ، فيتأكد لدينا موضوعية المنهج وتعلقه بمعايير
وضوابط لا بعصور وأزمنة . فمن الثابت تاريخيا :

(٢) نفس المصدر ص ١٩١

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج٢ ص ١٩٠ دار الفكر

١- وقوف السلف في وجه الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة والقدرية والجهمية وغيرها كما رأينا.

٢- شجب الاتجاه العقلي المغالي كالمعتزلة والفلاسفة وحتى أصحاب المواقف الوسط كالاشاعرة ، وهذا ما يعبر عنه مواقف الفقهاء وعلماء الحديث أمثال ابن حنبل والدارمي والشافعي ومالك وغيرهم.

٣- وظهر أيضا كأوضح ما يكون في مؤلفات ابن تيمية وابن القيم حيث أحاطا بعلوم وثقافة عصرهما - في القرنين السابع والثامن الهجري ووقفا بثبات ضد كل الاتجاهات التي استفحل خطرهما في دوائر علم الكلام والفلسفة والتصوف والتشيع.

٤- ظهرت ملامح متعددة للاتجاه السلفي في العصر الحديث، وإن بدت في جهود متفرقة لعلماء في شتى العالم الاسلامي لا تجمعهم وحدة الأرض. والأمثلة على ذلك : إظهار التوحيد بواسطة الامام بن عبد الوهاب وتبعه آخرون في الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق والمغرب والقارة الهندية واندونيسيا.

وكان دور السلفيين ظاهرا في هذا الدور للمحافظة على نقاء التوحيد الاسلامي في العقيدة والعبادة ، ثم الجهاد للتخلص من نير الاستعمار الغربي الصليبي.

وعندما ظهرت مشكلات جديدة بسبب اريداد ضراوة الغزو الاستعماري وفتح منافذ جديدة للتسلل منها والنيل من عقيدة الاسلام ، كانت السلفية بارزة المعالم في عدة مواقف ، نذكر منها:

١- معارضة دعوى التجديد وتطوير المفاهيم الدينية خضوعا للنظريات العلمية المعاصرة.

٢- نقد الفلسفة الحديثة الغربية والمعاصرة وشجبها بمنطق القرآن الكريم وعدم الخضوع لتصوراتها التي أخذت في الزحف على العالم الاسلامي وأحدثت ثغرات في الجبهة الاسلامية مستهدفة النيل من أصالة العقيدة الاسلامية ووحدها وشمولها، متبعة في ذلك شتى الأساليب كالفصل بين الدين والدولة أو العلمانية ، والنيل من السنة وإحلال القوانين الوضعية بدل الشريعة

الإسلامية . وكلها حيل جديدة منبثقة مما مر بحضارة الغرب وتاريخه وفلسفاته وما أصاب مجتمعاته من تغييرات اقتصادية وسياسية تخصه وحده .
وما دام الأمر كذلك ، فإن مما يستوقفنا ملاحظة طرق وأساليب اعداء الإسلام ، اذ تجتمع كلها - بالرغم من تعدد وسائلها للنيل من الإسلام عامة ، ومن الطريقة السلفية خاصة ، ثقافيا واجتماعيا وسياسيا .

ففي المجال الثقافي والتعليمي ، كان من دأب المستشرقين وما زال تعظيم الفرق المنشقة من الجماعة أمثال الخوارج والشيعة ، وإثارة الأفكار المخالفة للسلفية كالمعتزلة والجبرية والقدرية وغيرها من المذاهب الكلامية والأفكار الفلسفية ، مع تعظيم أصحابها وترويج أفكارهم ، والنيل من شيوخ السلف وعلمائهم ، أضف الى ذلك فرض دراسة الفلسفات الغربية قديمها وحديثها بكافة مذاهبها وأصحابها . لا بطريقة موضوعية ، ولكن بصورة قاتنة ، تُسحر النشء بالمغالاة قديماً وتعظيماً ، وتخفي سلوكهم الشخصي ، لأن معرفته تجعل إزدراءهم أولى! (١)

وفي المجال الاجتماعي توسيع دائرة التصوف وتشجيع الفرق الصوفية وتجبس نشر البدع باسم الإسلام ، أو تكوين ما يسمى بفرق الإنشاد الديني بصورة مشابهة للنصرانية كالموالد وبناء مساجد جديدة على الأضرحة ، وإلهاب مشاعر الجماهير العاطفية عن طريق التفسير الصوفي للدين وإخفاء منهج السلف في فهم الإسلام وتطبيقه وتكثير الأقلام المنفرة منه . وسياسيا ، دأب الاستعمار الغربي على تشجيع الفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة كما أسلفنا ، مع ابتداء أساليب جديدة كالباوية والبهائية والقاديانية ، ومدّها بالعون المادي وتمكين إتباعها من الوصول الى مراكز التأثير ، الى جانب إذاعة آرائها والترويج لها تحت ستار الإسلام مع الاعتماد أيضا على الفرق التي مازالت تتوارث عقائدها الباطلة المنحرفة عن الإسلام منذ ظهورها في المجتمعات الإسلامية كالباطنية الاسماعلية والنصيرية والدروز .

وإذا كانت خصوم السلفية ينتفرون منها بدعوى مناقاتها للتقدم فما هو التقدم؟

أصبح لفظ (التقدم) هو الشائع الآن وأخذت الغالبية تخضع للتفسير

(١) وقد أراح السائر عن بعضهم الدكتور رشدي نكّار بكتابه توضح (نهاية عمالقة في حضارة الغرب) ، والكتاب بإعداد وتقديم سيد أبو دومة ، - ط مكتبة وهبة بالقاهرة ٩ / ١٤٤٠هـ / ١٩٨٩م .

الذي يميل الى وصف كل ما هو حديث ومعاصر بالتقدم ، وامتدت هذه النزعة الى الاعمال الادبية والفنية وحتى الكتابات لصحفية اليومية وامتد نفوذ الفكرة ليشمل كل شيء ، فلم يميز بين التقدم في دائرة العلوم التجريبية وغيرها من ألوان الأنشطة الإنسانية ، وتعتمد على الفكرة الرائجة بالرغم من خطئها - كما سنثبت - إذ تصور المجتمعات البشرية وكأنها تتقدم تلقائياً كلما تقدّم بها الزمن ، فتقترب بمرور الأعوام والقرون من درجات الرقي والتقدم .

وليبيان خطأ الفكرة بالرغم من ذبوعها وانتشارها ، فإننا سنناقشها وفقاً للترتيب التالي :-

أولاً: إن الفكرة مرتبطة بالمراحل التاريخية التي مر بها الغرب ، اذ انتقل في تطوره المادى من العصور القديمة الى الوسطى فالحدیثة والمعاصرة وفى ضوء هذا التقسيم ، واقتران كل مرحلة بطرفها ، أصبح الغربى عندما ينظر الى تاريخه ، يفزعه المدلول السلفى ، لأن مضمونه التاريخى والحضارى يلتقى فى قلبه الرعب فالسلفية فى نظر الانسان هناك عموماً تعوقه عن التقدم المادى فى الصناعة والزراعة وحقول العلوم والمعارف المختلفة اذ تفجرت على أثر الثورة الصناعية واستخدام المنهج التجريبي فى العلوم ، بدلا من المنهج الصورى اليونانى ؛ وهو من نتاج سلف الحضارة المعاصرة وكان منطقاً عقيماً لم يتقدم بالعلم خطوة واحدة^(١) ، كما تحرمه السلفية هناك من العلمانية التى فصلت بين الدين والدولة سياسياً واجتماعياً طبقاً للشعار (دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر) فتحررت الشعوب بذلك من قيود رجال الكنيسة التى ضيقت الخناق

(١) يقول راسل (فقد جاء - يعنى أرسطو - فى ختام الفترة التميزية بالأصالة من تاريخ الفكر اليونانى ، ثم مضى بعد موته ألفاً عام قبل أن يتجب العالم فليسوفاً يمكن أن يدنو من مكائنه ، وفى أواخر هذه الحقبة الطويلة ، كان نفوذه قد أو شك أن يبلغ للكنيسة من سلطان لا يقبل الجدل ، وكان قد بات فى العالم وفى الفلسفة على السواء عقبة كؤوداً فى سبيل التقدم ، فمنذ بداية القرن السابع عشر، ترى كل خطوة تقريباً من خطوات التقدم العقلى مضطرة أن تبدأ بالهجوم على رأى من الآراء الأرسطية ، ولا يزال هذا يصدق على المنطق حتى يومنا هذا (تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٢٥٨ ترجمة د/ زكى نجيب محمود لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٦٧ م .)
ومن المناسب أيضاً الاسترشاد بتعريف « آلان تور » أستاذ علم الاجتماع بالسربون للتقدم وهو بالنص [ونحن حينما نقول اليوم : إن أوروبا أو الغرب عامة - بلغت درجات عليا من التقدم ، فلأنما نقصد درجات عليا من التحكم فى وسائل الإنتاج ، والصناعة ، ولا نقصد درجات عليا من الحضارة ، فالحضارة هى الإنسان قبل كل شيء ، والإنسان فى المجتمعات الأوروبية ، إنسان شقى مستعبد] من كتابة « نقد الحدائة سنة ١٩٨٩م نقلأ عن د/ أحمد القديرى بكتابه (الإسلام وصراع الحضارات ص ٨٩ كتاب الأمة » بقطر ذو الحجة سنة ١٤١٥هـ - مايو سنة ١٩٩٥ م .

على حركة التقدم السياسية والاجتماعية بل العلمية أيضاً (مثال : جاليليو).
ففى الميدان العلمى ، انطلق العلماء يتدعون سعياً وراء الحقائق التى تقدمها
التجارب والاكتشافات العلمية ، فىأتى العلم كل يوم بالجديد المذهل بعد أن
فك عن نفسه قيود تفسير رجال الكنيسة ، ولأن السلفية عنده كانت مضادة
للفكر الفلسفى الذى أراد التحرر من علم اللاهوت بتقديم الحل لمشكلة
التعارض بين الإيمان والعقل فى الدين المسيحى .
والسلفية بعد كل ذلك بالمضمون الغربى تعيد الى الإذهان الصور المظلمة
المقترنة بالظلم الاجتماعى والسيطرة السياسية فى عصور طغيان الملوك والأمراء
ورجال الاقطاع فى القرون الوسطى .

ولكن نتوقف برهة لتساءل : ماذا نريد بقولنا : التقدم؟ التقدم على ماذا؟
أو على من؟ أو بالنسبة لماذا؟ أو لمن يكون التأخر أو التقدم^(١)

يجيب على هذا السؤال أحد المؤرخين الذين فسروا الحضارة بالتغيير وليس
بالتقدم ، فان المجتمعات تتغير والتغير قد يكون تخلفاً أو تقدماً من نموذج
ومثل أعلى ذلك لان فى كيان الانسان مقومات ثابتة كالروح والغرائز والميول
وحاجته الى المسكن والطعام والشراب والنوم والتناسل ، ولكن التغيير يصيب
وسائله للوصول الى إشباع حاجته ، قد يتقدم فى استخدام وسائل أرقى ،
ولكنه يستخدمها فى الحروب وميادين القتال والسطو والسرقة .

ولكن هل خفف الانسان من أنانيته وأحقاده وظلمه وتعطشه لسفك الدماء
وفرض سيطرته على الضعفاء؟ أم ما زالت الحروب المستهدفة لإذلال الشعوب
واستغلالها ونهب ثرواتها مستمرة فى القرن العشرين الميلادى؟ ألم تعجز
الشعوب الصغيرة والضعيفة التى كانت مستعمرة بالأمس أن تجد لها مكاناً فى
عالم الأقوياء من الدول الكبرى؟ وفى ضوء ذلك كله هل التقدم حقيقى أم
مجرد وهم وخيال؟

يجيبنا على هذا التساؤل «ارى المر بارنز» بقوله :

(١) دكتور حسين مؤنس : الحضارة صفحة ٢٥٩. من سلسلة يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون
والآداب بالكويت عدد يناير ١٩٧٨م / محرم/ صفر ١٣٩٨هـ نقلأ عن كتاب (النظيم والمؤسسات
الاجتماعية).

(وعامة المؤرخين اليوم على أن ما يسمى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة الى الأمام أو الى الأحسن إنما هو وهم ، لأن غرائز الانسان واخلاقياته المركبة في طبعه باقية كما هي ، بل زادت حدة وضراوة و لا زال الوحش راقداً تحت جلد الانسان المتحضر ، بل إن لفظ « الوحش » فيه تجمل في وصف خلفية الانسان المتحضر اليوم ، فان الوحش يهاجم ليأكل أو ليدافع عن نفسه ، فيما عدا ذلك فهو ساكن أو وسنان ، أما الانسان فيدير لآبادة الألوف أو الملايين وهو راقد في فراش وثير في غرفة مكيفة الهواء تضم آخر مبتكرات التقدم المادي فأيهما الوحش؟

إن الانسان اليوم مخلوق ضعيف العقل في يده قبلة يمكن أن يحطم بها نفسه وغيره ، وهذا هو وضع الانسان القائد للحضارة والسياسة اليوم^(١)

ويرى الفيلسوف الفرنسي (ليوتار) سقوط فكره الحتمية (سواء في العلوم الطبيعية - كما عبرت عن ذلك فلسفة العلوم المعاصرة - أو في التاريخ الانساني فليست هناك كما أثبتت الأحداث - حتمية في التطور التاريخي من مرحلة إلى مرحلة ، على العكس - كما تدعو إلى ذلك حركة ما بعد الحدائق التاريخ الانساني مفتوح على احتمالات متعددة ، ومن هنا رفض فكرة « التقدم » الكلاسيكية التي كانت مقصود تاريخ الإنسانية وفق نموذج خطي صاعد من الأدنى إلى الأعلى . على العكس ترى حركة ما بعد الحدائق ، أنه ليس هناك دليل على ذلك ، فالتاريخ الانساني قد يتقدم ولكنه قد يتراجع ، ونضرب لذلك مثلاً على عجز فكرة التقدم ، بالحرب العالمية الأولى التي كانت بربرية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ، ثم ظهور النازية والفاشية ، واشتعال الحرب العالمية الثانية بكل ما انطوت عليه ، من فظا^٢ فح وجرائم وحشية وخسائر مادية وبشرية^(٢) وازاء كل ما نراه ماثلاً للعيان ، فاننا نميل الى الأخذ بالتفسير التاريخي القائل بأن التاريخ في سيره يأخذ اتجاهها منحدر^(٣) مستندين في

(١) النظم والمؤسسات الاجتماعية (تاري المر - نقلاً عن كتاب الحضارة) للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٩
(٢) الظرف ما بعد الحدائق : تقرير عن المعرفة ، نقلاً عن (الوعي التاريخي والثورة الكونية - حوار الحضارات في عالم متغير ص ١٥٢ السيديين - مركز الدراسات الحسانية الاستراتيجية - الأهرام القاهرة ١٩٩٥ م .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٦ ، أي إذا كانت الحضارة ترتقي بماديات الإنسان فإنها تنحدر بمعنوياته .

ذلك الى أن العصر الذهبي للانسانية تحقق في عصر النبوة ثم الصحابة والتابعين ، وبعد القرون الثلاثة المفضلة أخذت مراحل الانحدار تزداد كلما افرق المسلمون شيئا واحزابا مبتعدين عن تلقى الاسلام حسبا فهمه السلف وطبقوه عقيدة وشريعة وأخلاقا. (١)

ويتضح من حديث نبوي أن الرسول ﷺ قد أمر في هذه الأحوال بالصبر على الشدائد والمحن متبثا بأنها ستزداد على مر الأعصار:

عن الزبير بن عدي قال: اتينا أنس بن مالك رضى الله عنه فشكونا اليه ما تلقى من الحجاج فقال: اصبروا فانه لا يأتي رمان الا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم. سمعته من نبيكم ﷺ (رواه البخارى).

أما نظرية التقدم المرتبطة بدورة الزمن، فقد تعرضت لامتحان شديد في العصر الحديث كراى (ليوتار) ، وبعد توالى ظواهر تنبئ عن الأزمات فى العالم الغربى المتقدم مثل (انتشار الرذيلة واتساع نطاق استعمال المخدرات وضلال الشبان فى مناهات التمرد على المجتمع واتخاذ الغريب من الملابس والأزياء واتساع نطاق الجريمة المنظمة والارهاب) وما هى اذن فى الحقيقة الا خطوات مسرعة للتقدم نحو البربرية^(٢) وبالعكس ، اننا نرى أن المجتمع البدوى أكثر تقدماً اذا قيس بمقياس التقدم الاخلاقى المعنوى برغم تضحيته بالأفراد أحيانا للمحافظة على كيانه العام من أى تحلل. وقد يوقفه هذا المسلك فى مكانه ثابتا ويمنعه من اجتيار خطوات نحو ما تسميه المجتمعات الغربية بالتقدم، ولكنه يحتفظ بالصلابة فى تكوينه وحيويته، ولهذا فهو فى العادة

(١) لخص الإمام أبو الحسن الندوي أسباب انحطاط العالم الإسلامى العوامل الآتية :

- انتقال الإمامة من الأكفاء إلى غير الأكفاء مع تحريفات الحياة الإسلامية المثلثة فى فصل الدين عن السياسة والنزعات الجاهلية فى رجال الحكومة وقلّة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة والضلالات والبدع ، ولكنّ الدين ظل يحركّ الامال فى النفوس ، لأن الاسلام لم يزل طول حياته حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان فى نفوس القراء وثورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، ثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك.. ولم يزل ينهض بتأثيرهما - أى الكتاب والسنة - رجال يقومون فى هذه الأمة على طريقة الأنبياء .. وهم مصداق الحديث الشريف (ولا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله) - رواه الحاكم فى المستدرک .

(٢) د/ حسين مؤنس .. الحضارة ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

أطول عمرا وأقل مرضا وتعاسة من الجماعة المتقدمة ، وأفراده في العادة أوفر نصيبا من السعادة ، اذا كانت السعادة هي الاطمئنان على النفس والأهل والمال وراحة الضمير وخلو البال . (١)

أن البدوى في حياته المستقرة الهادئة أسعد حالا من الغربى المتقدم علميا الذى يجرى وراء سراب لن يصل اليه ، ذلك لأن عالم الغربى هو عالم صيرورة ابدية أى حدوث فانقضاء . إنه يفترق الى الهدوء والاستقرار (والزمن عدوه الذى يجب أن ينظر اليه دائما بمنظار الشك والريبة) (٢) واذا جازت المقارنة بين هذين النوعين من المجتمعات فلا يظن ظان أننا ندعو أو نحيد طريقة الحياة البدوية أو البدائية ، فإن سعادة البشر الحققة فى رأينا تبلغ ذروتها فى الحياة الدنيا اذا ضممنا الى وسائل التقدم العلمى تحقيق درجات الرقى الأخلاقى بمدلوله الاسلامى .

ثانيا : لا يصلح الزمن مقياسا للتقدم : يقول السير جيمس :

(ان قوانين الطبيعة الاساسية ، بقدر ما نعرفها فى الوقت الحاضر لا تقول لنا لم يمر الزمن بلا انقطاع؟ بل هى مستعدة لأن تميز احتمال بقائه ثابتا لا يتحرك بقدر ما تميز احتمال رجوعه القهقرى ، ذلك أن تقدم الزمن الى الامام بلا انقطاع ، و هو جوهر الصلة بين العلة والمعلول ، إنما هو شئ أضفناه من تجاربنا الخاصة الى قوانين الطبيعة المحققة ، ولسنا ندرى هل متأصل فى طبيعة الزمن وإن كانت نظرية النسبية تهم أن تسم الرأى القائل بتقدم الزمن تقدما مستمرا ، وبوجود الصلة بين العلة والمعلول تهم أن تسم هذا الرأى بميسم الوهم والخداع) (٣)

وبعد هذا التعريف المستفيض للزمن ، أيقن للانسان أن يتخذ مقياسا للتقدم أو التأخير؟ .

إننا نمضى معه رغماً عننا، فكيف نميز بين خطواتنا ونحن نلارمه ويلارمنا؟ .

(١) المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٢) محمد أسد . . الطريق إلى الاسلام ص ١٣٩ ، ترجمة عفيف البعلبكي ط دار العلم للملايين - بيروت مارس سنة ١٩٧٦م .

(٣) الكون الغامض ص ٣٣ - سير جيمس جيتز ، ترجمة عبدالحميد مرسى ومراجعة د / مصطفى مشرفة الطبعة الاميرية بيولاى ١٩٤٢م .

ثم إنه لا بد أن تدور عجلته ليتحول الحاضر إلى أمس ، وقد قيل : كل غدٍ صائر أمساً .

اننا في عصر ثبت أن الزمن إضافي وأن فروق الحال والمستقبل في الأشياء لا تكون طبقاً لحقيقة تلك الأشياء ، بل طبقاً لمشاهداتنا المحدودة (١) وإذا اعتمدنا على القرآن الكريم لا ستطلاع الآيات التي تتناول الزمن ترى من ما وردت الآيات تارة للإشارة إلى أن الحياة الدنيا مؤقتة وليست دائمة ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] .

أو الزمن الكوني ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤٠-٤١]

ويذكر بعض الآيات كعلامات للاهتمام ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢] . ولعرفة مواعيت الصلاة والزكاة والصيام والحج .

وقد وردت في الحديث «وانما الأعمال بخواتيمها والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير إلى الآخرة» المنذرى الترغيب والترهيب [ص ٤] ، [ص ٩٦] وقد رواه الاصبهاني من رواية ثابت بن محمد الكوني العابد . وما أدق التشبيه في الحديث لحن الانسان على أخذ نصيبه من العبادات والأعمال للترقى في الكمالات الانسانية وصولا الى جنة الخلد . وفي حديث يوم النحر قال الرسول ﷺ : [إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم] الحديث . وفي الحديث تحديد لشهور العام والتنصيب على أربعة حرم (متفق عليه)

أما الزمن بمدلوله التاريخي ، فقد أقامه القرآن على أساس ثابت سماه (سنة الله) تحذيراً وإنذاراً لبني آدم ، فدمار الأمم له تبريره الموضوعي ، والظلم مثلا

(١) وحيد الدين خان الإسلام والعصر الحديث ص ٣٧ ط المختار الاسلامي القاهرة ١٢٩٦هـ - ١٩٧٦م .

سبب للانتقام الإلهي ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرْآنَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصَلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

وكذلك بالنسبة للأفراد ، فقارون وفرعون وهامان وغيرهم (نماذج بشرية عرضها القرآن موضعاً أعمالهم ومبيناً نهاية ما حصدوه تنفيذاً لنفس السنة أو القانون الإلهي) (١) ومهما كانت الأزمنة أو العصور التي تظهر فيها الأمم أو الأفراد ، لأن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول (٢).

ثالثاً: التقدم في الإسلام:

إذا استبعدنا لفظ « التقدم » وما شابهه من الفاظ كالتطوير والثورية والتجديد وما إليها بسبب تزعزع مدلولاتها وذبذبة مفاهيمها، جار لنا استبدالها بما أقره الإسلام وحث عليه من اكتساب الفضائل ونبذ الرذائل لتمكين الإنسان من تحقيق مقام الخلافة في الأرض ، مجدداً الضوابط والمعايير التي لا تتغير أو تتبدل بتغيير الزمان والمكان، وتضمنت الآيات القرآنية الأوامر والنواهي واحتوت على الوعد والوعيد متوجهة بالخطاب إلى فطرة الإنسان تُحسِّن العدل والصدق والعلم والإحسان وتُصَبِّحُ أضدادها. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزِدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨] وقال عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] ويقتضى الوقوف على بعض معاني التقدم أن نستعرض آيات من الكتاب الكريم ونبذه من الأحاديث النبوية بادئين بالأول:

(١) في الكتاب : ها هو كتاب الله بين أيدينا وكذلك السنة كلاهما

(١) محمد كمال جعفر (في الدين المقارن) ص ١٤ ط دار الكتب الجامعية سنة ١٩٧٠ م .
 (٢) ويقول الدكتور أحمد القديري (أما أهل الجاهلية ، المتجهون كطبق « الدش » ، أو كعباد الشمس نحو الغرب ، فالحجة لديهم ، أننا يجب أن ندخل إلى عصرنا ، ونصبح عصريين . وفي الحقيقة تم مسخ مصطلح العصرية من أصله اللغوي الحضاري كتنسجة راهنة لسار متشعب ويطيء ، إلى مفهوم تغطية النموذج الغربي « العلماني » وإسباغ العصرية العالمية عليه ، كتزج من إكسابه الشرعية ، وإفراجه بالريادة) ص ١٢١ من كتاب « دار الإسلام وصراع الحضارات » كتاب الأمة - قطر ذو الحجة سنة ١٤١٥ هـ - مايو سنة ١٩٩٥ م .

يوضحان مراتب أحسن النماذج الانسانية ويحثان على الإرتقاء والسمو لاكتساب الفضائل التي بدونها لا يصبح الانسان انسانا : قال عز وجل ﴿ وسارعوا الى مغفرة من ربكم ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ ومدح قوما بقوله ﴿ يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ والنظر في القرآن الحكيم يدلنا فيما يرى الراغب الاصفهاني على درجات الارتقاء الاخلاقي ويحثنا على التسامى، ففي طرق الارتقاء ودرجاته يذكرها على الترتيب الآتي:

فأولها : أن يرتدع الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك مقاومتها وذلك أول درجة التائبين المطيعين .

ثانيها : أن يقوم بالعبادات المفروضة عليه ويسارع فيها بقدر وسعه وتلك درجة الصالحين .

وثالثها : أن يتحرى بعمله الحقيقي تعاطي الحسنات من غير تلفت منه الى المحظورات بمجاهدة هواه وإماته شهواته المحرمة وتلك منزلة الشهداء،

ورابعها : أن يكون مع هذه الأحوال المتقدمة برضى، ظاهراً وباطناً بقضاء الله تعالى، فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئاً من أمره، ويعلم أن الله تعالى أولى به من نفسه، وتلك درجة الصديقين. وهذه المنازل الأربعة المرادة بقوله تعالى ﴿ ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ (١)

أما عن مهاوى الانحدار ودركاته، فقد وردت آيات كثيرة تُحذّر من انحدار الانسان وسقوطه الى مهاوى الرذائل: فمنها ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ .

ويوضح لنا الاصفهاني ترتيباً تنازلياً لدركات الانحدار والارتداء : فأولها : - الكسل عن تحرى الخيرات ، ويورثه ذلك الزيغ لقوله تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وثانيها : - الغباوة وهي ترك النظر ونقص العمل فيورثه ذلك ربنا على قلبه لقوله ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾

(١) الراغب الاصفهاني : الدرية إلى مكارم الشريعة ص ٦٨ تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ط كبة الكليات الأزهرية بمصر ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

وثالثها: - الوقاحة وهي أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة القلب ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ .

ورابعها : - الانهماك في الباطل ، وهو أن يستحسنه فيحبه فيورثه ذلك ختماً على قلبه وقفلاً عليه كما قال تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ وكما قال ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ . فحق الانسان أن يرعى نفسه في الابتداء ولا يرخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك الى ارتكاب الكبائر (١) .

(ب) السنة : لو احصينا أحاديث الرسول - ﷺ - التي يحث فيها على الارتقاء والتقدم لما كفتنا كتب ومجلدات ، ولكن يلاحظ المتبع أياها أن الرسول - ﷺ - يتجه في ترغييه وترهييه الى الانسان على الحقيقة أى نفسه وروحه وقلبه لانها أساس غذاء القلب والروح وشحد الارادة وتهذيب الاخلاق، وتجعلها في المرتبة الأولى، قبل مظاهر الحضارة المادية من إقامة مصانع وانشاء مدن وشق طرق وبناء مدارس وجامعات و مستشفيات .

وربما خيل للكثيرين من المسلمين أنفسهم أن السنة تعنى فقط بالجانب التشريعى فى الإسلام من تحليل وتحريم وابطاحه ، أو الارشاد الى أنواع العبادات وكيفية اقامتها وأوقاتها وشروطها ومراتبها ، ولكن الحقيقة أن هناك جانباً كبيراً فى السنة القولية والعملية متضمنة إرشادات وتوجيهات فى الحياة الإنسانية دقيقتها وجليلها ، فى صورتها الفردية والاجتماعية . فأرشد بذلك الى منارات التقدم الحقيقى لكى يهتدى بها الانسان .

وكان الرسول - ﷺ - وسيظل القدوة فيها كلها حتى أحبه أصحابه رضوان الله عليهم أكثر من حبهم لأنفسهم، وسيبقى كذلك للمسلمين ما دامت الحياة الدنيا .

قال عروة بن مسعود يصف أحوال الصحابة بقوله : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكاً

(١) نفسه ص ٦٤ .

قط يعظّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ﷺ (١)
وما أحوج البشرية عامة والمسلمين خاصة الى الاسترشاد بستته في دروب
الحياة المتشعبة إذ لم يترك الدنيا الا أن تحدث وأوضح كل شئ.
ففي حديث جامع : عن معاذ قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ ثم
قال : يا معاذ ، أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ، ووفاء العهد وأداء
الامانة وترك الحيانة ورحم اليتيم وحفظ الجوار وكظم الغيظ ولين الكلام وبذل
السلام ولزوم الامام والتفقه من القرآن ، وحب الآخرة والجزع من الحساب ،
وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تصدق كاذباً ، أو
تعصى إماماً عادلاً ، وأن تفسد في الأرض . يا معاذ ، أذكر الله عند كل شجر
وحجر ، وأحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية (٢)
والاحاديث النبوية في الحث على مكارم الأخلاق ، والرقى الانساني
وتقدمه ، لا حد لها ولا حصر ، ولكن حسبى أن سقت مثالا بما يناسب هذا
المبحث في غرضه وحجمه .

(١) عبد الله بن محمد عبد الوهاب سيرة الرسول ﷺ ص ٣٠٦ ط السلفية بمصر ١٣٩٧هـ .
(٢) المنرى - ج ٤ ص ١٠٧ / ١٠٨ الترغيب والترهيب . وقال رواه البيهقي في كتاب الزهد ، ضبط احاديثه
وعلق عليه مصطفى محمد عمارة ط الحلبي ١٣٨٩هـ - ١٩٦٨م .



الفصل الرابع

النسق الإسلامي في مسائل الألوهية
والعالم والإنسان عند «ابن تيمية»

النسق الإسلامي في مسائل الألوهية والعالم والإنسان عند ابن تيمية

حياته:

تقى الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبدالله بن الخضمر بن محمد بن الخضمر بن علی بن عبدالله بن تيمية الحراني ، ولد في يوم الاثنين عاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م في حران ، ولم يقم بها زمنا طويلا اذا اضطر أبوه الى الهجرة منها الى دمشق سنة ٦٦٧ هـ خوفا من التتار .

عكف أحمد على دراسة العلوم الدينية ، ومكثته مواهبه العقلية من النبوغ مبكرا ، اذ أتم دراسته ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، حتى قيل إنه شرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت . ولما توفي والده سنة ٦٨١ هـ ، أخذ يدرس الفقه الحنبلي مكانه ، وانتهت إليه رئاسة هذا المذهب وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، ولكنه سرعان ما اتخذ لنفسه طريق الاجتهاد وذاعت شهرته لخوضه في علوم عصره ، وتفوقه فيها على العلماء المتخصصين ، فقد برع في علوم اللغة والتفسير والسنن والآثار وعلم الكلام وفرقه المتعددة .

ومر في حياته بأزمات ومحن فرضتها عليه أحوال عصره الثقافية والاجتماعية والسياسية للمسلمين ، وزادها شدة تمسكة بأرائه المدعومة بالأدلة العقلية والعقلية ، ونقده العنيف للانحرافات التي رأى من واجبه التصدي لها .

ويدأ اصطدامه بعلماء عصره حينما ورد عليه سؤال من حماة سنة ٦٩٨ هـ لبيان تفسيره لآيات وأحاديث الصفات كقوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وكحديث الرسول ﷺ [إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن] وغيرها وكانت إجابته بالعقيدة المعروفة « بالحموية الكبرى » فبدأ يجابه صنوفا من المحن والاضطهادات ألقت به في غيابة السجن أكثر من مرة

، لأنه أراد الارتقاء بالمسلمين الى مستوى السلف عقيدة وعبادة وتعاملاً وأخلاقاً، ولكن حال بينه وبينهم تراكمات متعاقبة تكوّنت على مرّ الإعصار بسبب عوامل خارجية وذاتية:

فمن ثقافات أجنبية ، الى تخريجات فقهية ، وانحرافات صوفية ، واتجاهات عقلية كلامية وفلسفية غالية .

وأخذ يجابه خصومه متسلحاً بنفس أسلحتهم ، فلجأ الى علم الكلام والفلسفة ليقرع الحجّة بالحجة، وكتب في الفقه وأصوله منفرداً بفتاوى مؤسسة على اجتهاداته الخاصة ورد على المناطقة مظهراً تهافت أسس المنطق الأرسططاليسي ، ودخل عدة معارك مع فرق الصوفية وشيوخهم ابتداء من الشيخ نصر المنبجي ، ذى السطوة لدى السلطان بييرس الجاشنكير ، الى الرفاعية الذين خدعوا الجماهير بحيلهم الباطلة ، كما كان محارباً بالسيف أيضاً في صفوف الجيش لصد غزو التتار .

وظل ينتقل من معركة الى معركة ، الى أن وافاه أجله وهو محبوس بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ - ١٣٢٨م

منهجه :

ربما كانت أفضل طريقة نتناول بها أفكار ابن تيمية - وان لم تكن هي الطريقة الوحيدة هي أن نتناولها عن طريق توضيح أبرز معالم منهجه ، وربما كانت قضية المنهج هي القضية الكبرى التي عاش لها، فان النقطة الرئيسية المتكررة في معظم أبحاثه هي أن الحجّة العقلية الصريحة لا تناقض الحجّة الشرعية الصحيحة .

ويكشف اسم أحد كتبه الأخيرة ومن أهمها بعنوان : (موافقة صحيح المنقول لصريح المغقول) على دلالة ما يقصده ، وهو يقصد بالمعقول البديهيات العقلية والأوليات الكلية ، وعلى هذا النحو يمضى مؤكداً صحة رأيه ، موجهها الأنظار الى الأصول العقلية في القرآن والحديث لبيان غناها الذاتي في البرهنة على صحة كافة القضايا التي تعرض لبحثها .

وقد يكون مسبقا بهذا الرأي بواسطة ابن رشد الفيلسوف الذي حاول اثبات مطابقة الفلسفة للشريعة بكتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) لكن المنحى المنطقي الذي ينحوه استدلال ابن تيمية جد مختلف من آراء ابن رشد الشارح لفلسفة أرسطوطاليس ، بينما كان الشيخ خصما عنيدا للفيلسوف اليوناني لا سيما في مبحثي الالهيات والمنطق .

وإذا افترضنا تأثير ابن رشد ، فإن الجذور الأساسية لفكر ابن تيمية ينبغي التماسها في الاتجاه السلفي السابق عليه ، ممثلا في نظريات الصحابة والتابعين ، ثم الفقهاء والمحدثين أمثال أبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل والبخاري والدارمي وابن قتيبة ، وتنظير أفكاره في القوالب الكلامية والفلسفية والمنطقية ، متابعاً منه لناهج عصره في الجدل والحجاج العقلي ومعارضةً لنتهج التأويل الكلامي الذي يرجح التفسير العقلي أن ظهر تعارض بين النقل والعقل ، حيث يرى أن هذا التعارض مصدره وهم خاطئ إما بسبب عدم العلم بالنص أو خطأ الفهم ، وثمة سبب آخر لا يسلم بصحته منذ البداية وهي تلك الأصول الكلامية التي يبنون عليها نتائجها كما سيأتي .

وإذا طالعنا كتابه المشار اليه آنفا نراه يدور حول إثبات أن دلالة القرآن شرعية عقلية ، فهي شرعية لان الشرع دل عليها وأرشد اليها ، وعقلية لانها تعلم صحتها بالمعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرتهم التي فطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض ، كما يعلمون تماثل المتماثلين ، واختلاف المختلفين اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد ومثل كون الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد . وتظهر دلالة القرآن بضرب الامثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب إذا يقول تعالى ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ وقوله عزوجل : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ والامثال هي أقيسة عقلية .

ولم يكل ابن تيمية من التنبيه على أن في القرآن والحكمة النبوية عامة أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات ، والقدر والنبوة والمعاد ودلائل هذه المسائل كما يقرر أنه ليس لأحد الخروج عن الشريعة في شئ من أموره ، بل

كل ما يصلح له فهو في الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته وغيرها ولعل سبب الخروج على هذه القاعدة الشاملة يرجع الى تجزئة الطوائف والفرق الاسلامية المختلفة للشريعة.

وعلى هذا النحو فقد جعل المتكلمون بإزاء الشرعيات العقلية أو الكلاميات وجعل الصوفية بإرائها الذوقيات والحقائق، والفلاسفة جعلوا بإزاء الشريعة الفلسفة، والملوك جعلوا بإزاء الشريعة السياسة، وأما الفقهاء والعامّة فيخرجون عما هو عندهم من الشريعة الى بعض هذه الأمور أو يجعلون بإرائها العادة أو المذهب أو الرأي . وظلّ الشيخ أميناً في التزامه بمنهجه، إذ مهما تشعبت أبحاثه وأجهدت الدارس وراءها بسبب كثرتها وامتدادها الى آفاق متعددة، فإن بما يخفف من أثر جهده العثور على التناسق والوحدة في التناج العقلي بين التفسيرات الميتافيزيقية والأخلاقية والسياسية:

إنه يؤكد أن كل ما عدا الله باطل، وأن حركة العالم حركة خضوع وسجود لخالفها، وأن الله هو المحبوب وحده، الغنى غنى ذاتياً، بينما مخلوقاته كلها فقيرة فقراً ذاتياً، فإن الحقيقة المعتبرة في كل برهان ودليل هي اللزوم، وبها يعرف أن كل ما في الوجود آية لله، فانه مفتقر اليه إذ لا بد له من محدث، كما قال تعالى ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾؟ ولكي تتحقق سعادة الانسان فلا بد من أن يؤله ربه وحده، فان أطيب ما في الدنيا معرفته، وأطيب ما في الآخرة مشاهدته.

كما ينبغي أن يستهدف الراعي والرعية إصلاح أمور الدين والدنيا، وإلا فسدت هذه وتلك، فصالح الخلق وسعادتهم في أن يكون الله هو معبودهم الذي تنتهي إليه محبتهم وإرادتهم، ويكون ذلك غاية الغايات ونهاية النهايات، كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾.

الالهيات:

تنوعت المسائل التي دار حولها بحث ابن تيمية في الالهيات :
فقد تحدث في أدلة وجود الله، وإثبات صفاته وأفعاله، وخلق وإحداثه للعالم، وعنايته وتدييره له .، وإن ظهرت عناصر أفكاره متشابكة الا أنه يلتزم

يُنْهَجُهُ الَّذِي سَقْنَاهُ أَنْفَا. فَمَنْ حَيْثُ الْأَدْلَةُ عَلَى اثْبَاتِ وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَانْه يَرَى أَنَّ الْمَعْلُومَ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ الْمَوْجُودَ إِذَا وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ، وَإِذَا غَيْرُ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ وَإِذَا قَدِيمٌ أَرْزَلِي وَإِذَا حَادِثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِذَا مَخْلُوقٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى خَالِقٍ وَإِذَا غَيْرُ مَخْلُوقٌ وَلَا مُفْتَقِرٌ إِلَى خَالِقٍ، وَإِذَا فَقِيرٌ إِلَى مَا سِوَاهُ وَإِذَا غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، وَيَسْتَخْلَصُ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَاتِ أَنَّ غَيْرَ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ، وَالْحَادِثُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِقَدِيمٍ، وَالْمَخْلُوقَاتُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِخَالِقٍ، وَالْفَقِيرُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِغَنِيِّ عَنْهُ، فَيَصِلُ إِلَى مَا يَرَاهُ لِأَرْزَلِي، خَالِقٌ، غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، وَمَا سِوَاهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

وَنَرَاهُ يَسْتَعْمِدُ هَذَا التَّقْسِيمَ عَلَى نَحْوِ يَطَابِقِ التَّقْسِيمِ التَّقْلِيدِيِّ عِنْدَ الْفَلَسَافَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ، ثُمَّ يَتَّقِلُ لِاثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ بِنَفْسِ الْمُنْهَجِ وَمَوْجُزِ الْقَوْلِ أَنَّهُ يَثْبِتُ الثَّنَائِيَّةَ فِي الْوُجُودِ:

قَدِيمٌ وَحَادِثٌ، غَنِيٌّ وَفَقِيرٌ، خَالِقٌ وَمَخْلُوقٌ مَعَ اتِّفَاقِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ مِنْهُمَا شَيْئًا ثَابِتًا. وَلَكِنْ لَا يَمَاطِلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فِي حَقِيقَتِهِ، إِذْ لَوْ تَمَاطَلَا لِلزَّمَنِ اجْتِمَاعُ النِّقِيضَيْنِ، وَهُوَ مُتَّفِقٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُخْتَصِّصٌ بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَالْعَبْدُ لَا يَشَارِكُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَالْعَبْدُ أَيْضًا مُخْتَصِّصٌ بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ مَشَارَكَةِ الْعَبْدِ فِي خِصَائِصِهِ.

وَمِنْ أَهَمِّ الْمَسَائِلِ الَّتِي ثَارَ الْجَدَلُ حَوْلَهَا بَيْنَ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَخِصُومِهِ هِيَ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَفْعَالُهُ، فَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْفِرْقِ بَيْنَ نَفْيِهَا كَجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَالْمُعْتَزَلَةَ أَوْ الْغُلُوِّ فِي إِثْبَاتِهَا لِدَرَجَةِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ كَالْهَشَامِيَّةِ وَالْكَرَامِيَّةِ وَقَلَّةٍ مِنَ الْخُنَابَلَةِ الَّذِينَ يَصِفُهُمْ ابْنُ تَيْمِيَّةَ بِأَنَّهُمْ أَتَوْا مِنَ الْمُنْكَرَاتِ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ بَرِيٌّ مِنْهُمْ، أَوْ اتَّخَذَ الْمَوْقِفَ الْوَسْطِيَّ، كَمَا فَعَلَ الْأَشَاعِرَةُ الَّذِينَ أَثْبَتُوا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَبْعَ صِفَاتٍ هِيَ: الْحَيَاةُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالْكَلَامُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ، وَعَدَّوْا صِفَاتِ الْفِعْلِ كَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالخَلْقِ وَالرِّضَا وَالغَضَبِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي يَنْبَغِي

تنزيه الله عنها .

ويعترض الشيخ على طريقة المتكلمين، اد أنهم أقاموا حجتهم على محاولة إثبات الصانع باثبات حدوث الأجسام، الذي لا يثبت حدوثها الا بحدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال، فالجأهم هذا الى نفي صفات الله تعالى وأفعاله القائمة به .

ويستند منهج المتكلمين بعامة الى الاصل الآتي :

إن الأجسام لا تخلو من الحوادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث، لأن ما لا يخلو عنها ولا يسبقها يكون معها أو بعدها، وما كان مع الحوادث أو بعدها فهو حادث . وبعضهم يقول إن الحوادث لا تدوم ، بل يمتنع حوادث لا أول لها، ومنهم من يمنع أيضا وجود حوادث لا آخر لها، كما يقول ذلك الجهم بن صفوان وأبو الهذيل العلاف .

ودعم ابن تيمية كعادته موقفه الناقد للأصول الكلامية بأدلة شرعية وعقلية :

ولنبدا بالعقلية فنقول: لا يسلم بصحة هذا الأصل لأنه فاسد مخالف للعقل والشرع كما أنهم لم يميزوا بين جنس ونوع الحوادث اذ الجنس لا يقال له حادث ولا محدث، وأيضا فإن صفات الله ثابتة فلا تسمى أعراضا .

ويستخلص من مذاهب المتكلمين إلزامات يؤدي اليها سياق مذاهبهم، فإن التوحيد عند المعتزلة وهو في حقيقته نفي الصفات الالهية لان الصفات أعراض عندهم قول باطل، لأنهم يسلّمون بأن الله حي، عليم، قدير، ومن المعلوم أن حياً بلا حياة ، وعالماً بلا علم ، وقدير بلا قدرة يدل على موقف معاند للعقل والشرع واللغة، لأن الصفات إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، لاغيره .

وكذلك الأمر بالنسبة للأشاعرة الذين أثبتوا صفات الذات وفروا من إثبات الأفعال ، إذا لا يعقل أن يكون الموصوف حياً ، عالماً ، قادراً متكلماً رحيماً ، بحياة قامت بغيره، ولا بعلم وقدرة قامت بغيره، ولا بكلام ورحمة وإرادة قامت بغيره .

ويلزمهم جميعاً أن الله لم يكن قادراً على الفعل في الأزل فصار قادراً، أو

كان الفعل ممتنعاً عليه فصار ممكناً من غير تجديد شيء أصلاً أوجب القدرة والإمكان، وفي هذا القول إلزام بأن ينقلب الشيء من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي ؛ وهو ما تجزم العقول ببطلانه ، مع ما فيه من وصف الله بالعجز وتجدد القدرة من غير سبب . كما تطاول عليهم الدهرية فتساءلوا : كيف يحدث الحادث بلا سبب حادث ؟

الصحيح إذن أنه لا يمكن إثبات الصانع وإحداث المحدثات إلا بإثبات صفات الله تعالى وأفعاله ، ولا تُقطع الدهرية من الفلاسفة وغيرهم قطعاً باتاً عقلياً إلا على طريقة السانف أهل الإثبات للأسماء والصفات والأفعال الإلهية ونفى الكيفية عنها ، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، وإثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات .

ويثبت ابن تيمية أن البرهان على تنزيه الله تعالى قائم على أصلين قياس الأولي ، فإن كل صفة متحققة في المخلوقات ، فإن الله سبحانه أولى بثبوتها له ، وهو قياس عقلي برهاني مستمد من القرآن لإثبات أصول في العلم الإلهي . والأصل الثاني : أن الله تعالى مستحق لصفات الكمال ، وليس له مثل في شيء من صفات الكمال ، فهو منزّه عن النقص مطلقاً ، ومنزه في الكمال أن يكون له مثل ، وقد دل على ذلك قوله ﴿قل هو الله أحد﴾ فتبين أنه أحد صمد ، واسمه الأحد يتضمن نفى المثل ، واسمه الصمد يتضمن جميع صفات الكمال .

أما رده على الفلاسفة القائلين بقدم العالم ، فإنه يذكر أن الفعل والخلق والإبداع والصنع ونحو ذلك لا يُعقل إلا مع تصور حدوث المفعول ، وأيضاً فإن الجمع بين كون الشيء مفعولاً وبين كونه قديماً أزلياً مقارناً في الزمان جمع بين المتناقضين ، لأن التقدم والتأخر المعروف هو التقدم والتأخر بالزمان ، فإن قبل وبعد ونحو ذلك معانيها لازمة للتقدم والتأخر الزمني ، وأما التقدم بالعلية أو بالذات مع المقارنة في الزمان ، فهذا لا يُعقل ألبتة ولا له مثال مطابق في الوجود ، بل هو مجرد تخيل لا حقيقة له .

وحيثلذا فإذا كان الرب هو الأول كالتقدم على ما سواه كان كل شيء متأخراً

عنه ، وأن قُدِّر أنه لم يزل فاعلاً ، فكل فعل معين ومفعول معين هو متأخر عنه . وإذا قيل : الزمان مقدار الحركة ، فليس هو مقدار حركة معينة للشمس أو الفلك ، بل الزمان المطلق مقدار الحركة المطلقة . . وقد كان قبل أن يخلق السموات والأرض والشمس والقمر حركات وأزمنة ويعد أن يقيم الله القيامة فتذهب الشمس والقمر تكون في الجنة حركات كما قال تعالى : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ . فالرب تعالى إذن لم يزل متكلماً بمشيئة ، فعلاً بمشيئة ، كان مقدار كلامه وفعله الذي لم يزل هو الوقت الذي يحدث فيه ما يحدث من مفعولاته ، وهو سبحانه متقدّم على كل ما سواه التقدّم الحقيقي المعقول .

٢- العالم :

يعنى بالعالم اصطلاحاً كل ما سوى الله . وردا على رأى أرسطو ، فإن ابن تيمية يذهب إلى أن العقل الصريح لا يدل على قدم شيء بعينه من العالم ، وإنما يدل على أن الرب لم يزل فاعلاً، وحيثذ فإذا قُدِّر أنه لم يزل يخلق شيئاً بعد شيء ، كان كل ما سواه مخلوقاً محدثاً مسبقاً بالعدم ، ولم يكن من العالم شيء قديم . وهذا التقدير ليس مع الفلاسفة ما يبطله ، مستشهداً باتفاق أهل الملل على أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السماوات وهو الدخان الذي هو البخار ، كما قال ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ . وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حيثند موجوداً ، كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين وكما عليه أهل الكتاب . وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفلك ، فإن هذا مما خلق في تلك الأيام ، بل تلك الأيام مقدرة بحركة أخرى، ثم يبين امتناع أن يكون مع الله شيء من المبدعات قديم بقدمه .

والنقطة الرئيسية في هذا الجزء هي قضية صدور العالم عن الله ، إذ اعترض على تفسير الفلاسفة بأنه علة تامة في الأزل فيجب أن يقارنها ، كما بين خطأ المتكلمين الذين ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، وأن القادر

المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وأن الحوادث لها ابتداء ، وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث .

ولإظهار تهافت الرأي الفلسفي ، فإنه يوضح المقصود بأن المؤثر يستلزم أثره: ويراد به شيان ، قد يراد به أن يكون معه في الزمان - كما يقوله الدهرية في قدم الأفلاك - وقد يراد به أن يكون عقبه ، وعلى هذا فيمتنع أن يكون في العالم شيء قديم .

وكان عليه تخطئة المتكلمين أيضاً في اعتقادهم أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، ثم يحدث الأثر من غير سبب اقتضى حدوثه ، لأن الذي يدل عليه المعقول الصريح ، ويقر به عامة العقلاء ، ودلّ عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة ، أن المؤثر التام يستلزم وقوع أثره عقب تأثره التام - لا يقترن به ولا يتراخى عنه - كما إذا طلقت المرأة فطلقت ، وكسر الإناء فانكسر ، وقطع الحبل فانقطع ، فوقع الطلاق والكسر والقطع ، ليس مقارناً لنفس التطبيق والتكسير والقطع ، بحيث يكون معه ، ولا هو أيضاً متراخ عنه ، بل يكن عقبه متصلاً به ، وقد يقال هو معه ومفارق له باعتبار أنه يكون عقبه متصلاً به ، كما يقال هو بعده متأخر عنه باعتبار أنه إنما يكون عقب التأثير التام . ولهذا قال تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، فهو سبحانه يكون ما يشاء تكوينه ، فإذا كونه كان عقب تكوينه متصلاً به ، لا يكون مع تكوينه في الزمان ، ولا يكون متراخياً عن تكوينه بينهما فصل في الزمان ، بل يكون متصلاً بتكوينه كاتصال أجزاء الحركة والزمان بعضها ببعض .

كما خالف رأى الفلاسفة في الجسم المكون من هيولى وصورة ، ورأى المتكلمين القائلين بالجواهر الفرد ، إذ يرى أن الجسم شيء واحد فى نفسه ، ينقلب من حال إلى حال ، كالنطفة والعلقة والمضغة والعظام وهكذا ، وهو ما أجمع عليه العقلاء وما اتفق عليه الأطباء ، فالله سبحانه يقلبها ويحيلها من جسم إلى جسم . ونقد الأشاعرة لأنهم لا يثبتون فى المخلوقات قوى الطبائع ، ويرون أن الله يفعل عند الأسباب لا بها ، فإن مؤدى مذهبهم إبطال حكمة الله فى خلقه ، وأنه لم يجعل فى العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ، ولا فى النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها ، ويلخص رأيه فى العبارة الجامعة

الآتية (إن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلمة قدح في الشرع) .
 ولنا أن نتوقف عند الصياغة التي صاغ بها آراءه مفسراً لحركة العالم حيث مزج فيها بين دليل الافتقار القرآني ، والتعليل الغائي الأرسطاليسي ليوضح في إحكام نتائج ميتافيزيقية وأخلاقية : فالمخلوقات مفتقرة إلى الخالق لأن الفقر وصف لازم لها دائما فهي لا تزال مفتقرة إليه ، والإمكان والحدوث دليلان على الافتقار ، وفقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علة ، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة . وهذا من معاني «الصمد» وهو الذي يفتقر إليه كل شيء ، ويستغنى عن كل شيء ، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته ومن جهة الاهيته . فما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له ، لا يصلح ، ولا ينفع ولا يدوم . وهذا تحقيق قوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ، فلو لم يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء .
 وكل الأعمال إن لم تكن لأجله - فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته - وإلا كانت أعمالاً فاسدة ، فإن الحركات تفتقر إلى العلة الغائية ، كما افتقرت إلى العلة الفاعلية ، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلاً ، ولولا ذلك لم يفعل ، فلولا أنه المعبود لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات بل كان العالم يفسد ، وهذا معنى قوله ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا﴾ ولم يقل لعدمنا .

ولقد رأينا غير مقتنع بعقيدة المتكلمين أن الحوادث لها ابتداء ، لأنها تمس القدرة الإلهية المطلقة ، وسياقها يؤدي إلى أن الرب لم يزل معطلاً لا يفعل شيئاً بمشيئته وقدرته ، ثم صار يفعل فأراد أن يدحض رأيهم ، أو بعبارة أخرى ، فإن مضمون دليلهم يلزمهم أن يكون الرب كان غير قادر ثم صار قادراً من غير تجديد سبب يوجب كونه قادراً ، فأدى بالجهم بن صفوان وأبي الهذيل العلاف إلى الزعم بامتناع الحوادث في المستقبل أيضاً ، فصرح الأول بفناء الجنة والنار ، واضطر الثاني إلى القول بفناء حركتهما . وحجتهم على امتناع دوام الحوادث في الماضي هو أنه كان في الأول قادراً على ما لم يزل .

ويستند ابن تيمية في حجته العقلية إلى أن القادر لا يكون قادراً مع كون المقدور ممتنعاً ، بل القدرة على الممتنع ممتنعة ، وإنما يكون قادراً على ما يمكنه أن يفعله ، فإذا كان لم يزل قادراً ، فلم يزل يمكنه أن يفعل . وأيضاً فالأزل معناه عدم الأولية ، ليس الأزل شيئاً محدوداً ، فالقول بأنه لم يزل قادراً بمتزلة القول هو قادر دائماً ، وكونه قادراً وصف دائم لا ابتداء له

ويستخلص من هذا أن الله تعالى يقدر بلا ريب على خلق غير هذا العالم ، وعلى إبداع غيره إلى ما لا يتناهى كثرة ، ويقدر على عين ما يفعله ومن الواضح أنه يميز بين أنواع الحوادث و أجناسها ، وبين أعيانها و أشخاصها ، فالأولى قديمة والثانية حادثة . وقد أيقن هنا أنه ربما أسيء فهمه ، فصرح بأنه (إذا ظن الظان أن هذا يقتضى قدم شيء معه كان من فساد تصوّره ، فإنه إذا كان خالق كل شيء فكل ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم ، فليس مع شيء قديم بقدمه . وإذا قيل لم يزل يخلق كان هنا لم يزل يخلق مخلوقاً بعد مخلوق كما لا يزال في الأبد يخلق مخلوقاً بعد مخلوق) .

٣- الإنسان :

ليس من سبيل إلى إنكار تلك الحقيقة البارزة في أفكار ابن تيمية ، ونعنى بها استناده إلى ميزان الشرع ودليل العقل . ويتبغى أن نذكر أنه في نظريته إلى الإنسان ، طبق منهجه بدقة أيضاً ، من تحليله لمكونات الإنسان المادية - أى الجسد - ووصفه للنفس وعلاقتها بالبدن ، ومشكلة الإرادة الإنسانية بين الجبر والاختيار ، ومبحث المعرفة ، وأخيراً الاتجاه الأخلاقي لنظرياته المصطبغة بالصبغة العقلية المثالية .

لقد دعم نظريته بالدليل القرآني في قوله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ ، وقوله ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ ، فأصل الإنسان التراب وفصله الماء ، فتظهر القدرة الإلهية التى تبهر العقول ، وهو أن يقلب حقائق الموجودات فيحيل الموجودات من شيء لآخر ، فإذا خلق الله الإنسان من المنى ، فالمنى استحالة وصار علقة ، والعلقة استحالة وصارت مضغة والمضغة استحالة

إلى عظام وغير عظام . فالإنسان مخلوق ، خلقه الله ، جواهره وأعراضه كلها من المتني، من مادة استحالت ، فهي ليست مادة باقية أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يذكر الفلاسفة . ويرد على الجهمية القائلين بأن الله أحدث صورة عرضية .

وعن الموت والبعث ، يذكر ابن تيمية أنه عند إفناء الإنسان إذا مات وصار تراباً فنى وعدم ، كما يفنى سائر ما على الأرض لقوله تعالى ﴿ كل من عليها فان ﴾ ، ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداءً ويخلقه خلقاً جديداً ، ولكن للنشأة الثانية أحكام وصفات ليست للأولى ، فمعرفة الإنسان بالخلق الأول وما يخلقه من بنى آدم وغيرهم من الحيوان ، وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار ، وما يخلقه من السحاب والمطر ، وغير ذلك هو أصل لمعرفته بالخلق والبعث وبالمبدأ والمعاد.

على أن نظريته في النفس الإنسانية مستمدة من الشرع ، فيرى أن الروح مدبرة للبدن ، وهي التي تفارقه بالموت بعد أن نفخت فيه عند بدء الحياة ، ويستخدم الآيات والأحاديث التي تشير إلى الروح والنفس بمعنى واحد كمترادفين ، ولكن التفرقة تظهر عندما يسمى النفس باعتبارها تدبر البدن ، ويسمى روحاً باعتبار لطفه ، فإن لفظ (الروح) يقتضى اللطف ولهذا تسمى الريح روحاً .

وهناك من المصطلحات اللغوية ما يشير إلى النفس بمعاني متعددة ، فقد يراد بنفس الشيء ذاته ، وقد يقال بلفظ النفس الدم الذي يكون في الحيوان كما يقول الفقهاء (ما له نفس ساقله وما ليس له نفس سائلة) ، ويراد بالنفس عند كثير من المتأخرين صفاتها المدمومة ، وقد يقصد بها هواها وأفعالها .

وأيضاً يقال النفوس ثلاثة أنواع : وهي النفس الأمارة بالسوء التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي ، والنفس اللوامة وهي التي تذنب وتتوب ، لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ولأنها تتلوم أى تتردد بين الخير والشر ، والنفس المطمئنة وهي التي تحب الخير والحسنات وتبغض الشر والسيئات .

وهذه هي النظرة الدينية للنفس ، فهي نفس واحدة ، ولكن الصفات الأنفة صفات وأحوال لذات واحدة ، وهذا أمر يتحقق الإنسان من صحته في نفسه ، ومن هنا يظهر خطأ بعض الفلاسفة في اعتبارها ثلاثة أعيان قائمة بأنفسها . ولكن لا يعلم كيفية النفس لأن طبيعتها ليست من جنس العناصر كالماء والهواء والنار والتراب .

أما علاقة النفس بالبدن ومكانها فيه ، فإننا لا نعلم مسكنها من الجسد ، إذ لا اختصاص للروح بشيء منه ، بل هي سارية في الجسد كما تسرى الحياة التي هي عرض في جميع البدن ، فإن الحياة مشروطة بالروح ، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة ، وإذا فارقت الروح فارقت الحياة .

ويصح أن نعهده من التجريبيين أيضاً ، لأن القضايا المعينة المخصوصة أبده للعقل من القضايا الكلية ، كالقول بأن كل محدث ، لا بد له من محدث ، ولكن يصح أيضاً التساؤل عن معنى العقل عنده للتمييز بينه وبين الآراء التي دارت حول العقل في الفلسفة الإسلامية تأثراً بالفكر اليوناني ، مع بيان صلة العقل بالقلب في نظرية المعرفة .

ويستخلص من آراء علماء المسلمين أن اسم العقل إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعقل ، وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى ﴿لعلكم تعقلون﴾ وقوله ﴿قد بينا الآيات إن كنتم تعقلون﴾ فيدل على أن العقل مصدر عقل يعقل عقلاً . وتظهر نزعة ابن تيمية الدينامية في اشتراطه العلم والعمل معاً ، فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم ، بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به ، والعمل بالعلم ، مفسراً بذلك قوله تعالى ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ .

وتتم عملية المعرفة عنده نتيجة امتزاج قوتى القلب والعقل . وقبل شرح الكيفية التي تتم بها ، فإنه يتعرض أولاً لشرح المقصود بالقلب . إذ يراد به المضخة الصنوبرية في الجانب الأيسر من البدن ، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً كقلب اللوزة والجوزة ، وإذا أريد بالقلب هذا ، فالعقل متعلق بدماغه أيضاً ، ولهذا قيل إن العقل في الدماغ ، كما يقوله كثير من الأطباء

ونقل ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل .

ولما كان العقل يطلق على العلم والعمل كما بينا ، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة ، وأصل الإرادة في القلب ، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصوّر المراد ، فلا بد أن يكون القلب متصوِّراً فيكون منه هذا وهذا ، ويتبدئ ذلك من الدماغ . لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ، ومبدأ الإرادة في القلب، أى أن الاعتقاد والإرادة يتعاونان .

ويرى أن طرق العلم هي الحس والسمع والبصر والعقل، مشترطاً اقتران الحس الباطن أو الظاهر بالعقل، للتمييز بين المحسوس وغيره ، وإلا دخل فيه من الأخطاء من جنس ما يدخل على النائم أو المريض ممن يحكم بمجرد الحس الذي لا عقل معه .

أما عن تعريفه الأخلاقي للإنسان ، فإنه حتى حارث همام متحرك بالإرادة ، مشيراً بالهم إلى النية والقصد ، وبالحرث إلى العمل . وتتحقق السعادة الكاملة بطريقتين : أحدهما بصلة العبد بربه والثانية بصلته بالناس ، فإن تحقق سعادة الإنسان في كمال استقراره إلى ربه واحتياجه إليه ، فالخلق كلهم محتاجون إلى خالقهم، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾ . وقال ﴿ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ ﴾ ، وفي الآية الأخرى ﴿ كَانَ يَأْتُوا اللَّهَ بَدُوحًا كَالَّذِي يُؤْتِي السَّمَكَةَ مِنَ الشَّجَرِ يَذُرُّهَا ﴾ . وكان التعامل معهم لله ، أى رجاء الثواب من الله ، وخوفاً منه ، لا خوفاً منهم ، ولا انتظاراً لمكافأتهم .

ويؤيد ابن تيمية قول أهل السنة والجماعة أن العبد له قدرة وإرادة وفعل وهو فاعل حقيقة ، والله خلق ذلك كله كما هو خالق كل شيء ، وفعل العبد حادث يمكنه التدخل في عموم خلق الله للحوادث . ولكنه يثبت حرية الإرادة الإنسانية . ونراه هنا يميل إلى الاستعانة بالعامل الوجداني الذي يحسه الإنسان من نفسه ، وخير ما يعبر عنه الموقف الإنساني المتأرجح بين الإقرار بالحرية وإنكارها قول بعض العلماء (أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ،

أى مذهب وافق هواك تمذهبت به (١٩) . وله أبحاث كثيرة للبرهنة على حرية الانسان ومسئولية عن أفعاله يتناول فيها التمييز بين حكم الله الكوني ، وحكمه الديني . أو إرادته الكونية والدينية . ففي الأولي مثل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ، وفي الثانيه كقوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ولهذا الرأي صلاته واضحة باتجاهاته الاخلاقية ، فإن للأفعال تأثيرها على النفس الإنسانية، فتكسيبها صفات محمودة وصفات مذمومة، بخلاف لون الإنسان وطوله وعرضه، فإنها لا تكسبه ذلك، فالعلم النافع والعمل الصالح كالصلاة والزكاة وصدق الحديث وإخلاص العمل لله وأمثال ذلك ، تورث القلب صفات محمودة ، ففعل الحسنة له آثار محمودة في النفس وفي الخارج ، وبالعكس السيئات والذنوب ، وأعظمها الكبر والحسد التي بهما عصى الله أولاً ، فإن إبليس استكبر وحسد آدم ، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسداً . والكبر والحسد يناقيان الإسلام ، لان الإسلام هو الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر كحال فرعون وملأه، ومن أسلم وجهه لله حنيفاً فهو المسلم الذي على ملة إبراهيم عليه السلام الذي قال له ربه ﴿أَسْلَمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .



الملاحق

ملحق رقم (١)

روجيه جارودي يوجه رسالة خاصة لـ (الشعب) (المصرية) اتهامي بالتشكيك في السنة وأبي حنيفة والشافعي كذب وافتراء (١)

خص المفكر الإسلامي الفرنسي الكبير روجيه جارودي جريدة الشعب برسالة ترد علي حملة الافتراءات التي تعرض لها في بعض وسائل الإعلام العربي التي تشكك في موقفه من السنة الشريفة والفقيهين الجليلين أبي حنيفة والشافعي... وربط جارودي بين هذه الحملة والمحكمة التي يتعرض لها للمرة الثانية في إطار حملة صهيونية تتهمه بالعداء للسامية.. وقد علمت «الشعب» أن حكم المحكمة الفرنسية ق صدر بالفعل بسجن جارودي لمدة عام... ولكن ما زال أمامه الاستئناف.. وفيما يلي رسالة روجيه جارودي.. [الله وحده هو الحاكم].

بسم الله الرحمن الرحيم

في ١٩ مارس تسلمت من المحكمة شكوي ضدي متضمنة تهمة وتهديداً بالسجن لمدة عام ، وذلك إثر صدور كتابي الأخير «الخرافات التأسيسية للسياسة الإسرائيلية» الذي أظهرت فيه أنه لا النصوص التوراتية ولا اضطهاد هتلر يمكن أن تبرر سرقة أراضي الفلسطينيين وطردهم وتعرضهم للاضطهاد والقمع الدموي المسلط عليهم ، كما لا يمكن أن تبرر خطة تفتيت وتفكيك الدول العربية وهي جوهر السياسة الإسرائيلية كما عرضتها المجلة الصهيونية «كيفونيم» وهي الخطة التي سبق أن نشرتها في كتابي وقمت بدحضها .
بعد ذلك بأيام جلب لي إخوة من فلسطين صحيفتين هما «المجلة» و«عكاظ» وصحفاً خليجية أخرى تتخللها صور لي . اعتقدت بسذاجة في بادئ الأمر أن المقالات تدافع عني ، لكنني اكتشفت العكس إنها تعمل علي سلب مصداقيتي بأكثر الحجج كذباً وتزييفاً. إن هذه الحملة التي أتعرض لها وثيقة الصلة بموقفي من حرب الخليج، ورفضي التدخل الأجنبي في شئون الأمة الإسلامية .

(١) الشعب ١٢ من ذي الحجة ١٤١٦هـ ، ٣٠ أبريل ١٩٩٦م

ينتقدون ويؤاخذون بافتراء علي·أنني أزرع الشك بحق أبي حنيفة والشافعي في حين أنني أقدمهما بشكل خاص كمثال يحتذي في جميع كتبي ومقالاتي . إن هذين الفقيهين العبقريين اللذين لمحجا ، انطلاقاً من مبادئ خالدة في «الشريعة» تؤكد كما أكد القرآن أن (الله وحده المالك ، والله وحده الحاكم ، والله وحده العالم) لمحجا أيضاً في أن يقيما فقهاً يستجيب لحاجة بلدهما وزمنهما ، وأصبحا بالنسبة إلينا نموذجاً لهذا التفكير والتأمل الذي يدعونا إليه القرآن بلا انقطاع ، أي إقامة فقه للقرن العشرين انطلاقاً من الشريعة الخالدة والثابتة .

في حين أن انتقاداتي تعمل علي كشف إسلام البعض الذي يدعي فرض القرن العاشر علي القرن العشرين ، يتهمونني برفض السنة وهذه كذبة أخرى لأنني ألومهم علي الاستخدام السياسي للسنة .

عندما حطّم السادات الوحدة العربية ، وذهب إلي الكنيسة الصهيوني ومن ثم إلي أمريكا وإلي كامب ديفيد ليوقع سلاماً منفصلاً مع إسرائيل ، جاءت فتوي من الأزهر تحيي خطوته وتضفي عليها الشرعية الدينية .

وعندما نظم المستعمرون الغربيون القداماء وزعيمتهم أمريكا ، في شرم الشيخ ، استعراضاً كبيراً أي تجمعاً لرؤساء الدول لمحاربة الإرهاب ، وذلك بالتضامن مع أعني وأسوأ الإرهابيين أي الحكام الإسرائيليين وعين الهدف وهو إيران ، بانتظار أن يأتي دور ليبيا ، نري نفس الحكام العرب يسارعون لتلبية نداء سيدهم الأمريكي ويذهبون ليدلوا أنفسهم الواحد بعد الآخر في تل أبيب أمام الحكام الإسرائيليين (عدا ثلاثة من زعماء المسلمين) .

هل احتج العلماء الذين يتهمونني ضد قمة شرم الشيخ ؟ هل دعوا إلي اجتماع دولي للتضامن مع الفلسطينيين بعد المذبحة الإرهابية ضد المسلمين ، أثناء تأديتهم الصلاة ، علي يد الإسرائيليين ؟ كلا لقد صمتوا كلياً .

هل نددوا بالمنظمة العالمية للتجارة (الجات سابقاً) . وبصندوق النقد الدولي الذي تفرض تعليماته علي العالم الثالث الخضوع والتبعية ؟ كلا، لأن سادتهم الأمريكيين لم يسمحوا لهم بذلك .

إن شاغلهم الأساسي هو تشويه أقوال جارودي ، وردى الوحيد عليهم هو الكتاب الذي ألخص فيه تاريخ الإسلام وهو كتاب «عظمة وانتكاس الإسلام - ١٩٩٦م» مذكراً بإيماني بالإسلام ومحاربي الحكام السياسيين الذين يذنبونهم . إن البلدان العربية التي يحكمها مثل هؤلاء الحكام الذين في خدمتهم هذه الفئة من رجال الدين هم المزيفون للإسلام الذي لن يعثر علي عظمته وإشعاعه العالمي إلا عندما تطرد الشعوب هؤلاء الحكام وحمايتهم الأمريكان إلي بلدهم حاملين معهم في حقائبهم الحكام غير المؤهلين وغير الجديرين والعلماء الذين تعاونوا معهم .

حينذاك سيستعيد الإسلام حيويته وعافيته التي كانت له في القرن الأول الهجري وقواه التجديدية الدائمة المتمثلة في إنعاش وإحياء العلوم الدينية . . . علوم الغزالي العظيم وكذلك إعادة بناء الفكر الديني للإسلام لمحمد إقبال ، وسادتي المبجلين كالأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وابن باديس ومالك بن نبي وأخي المخلص حتي الموت محمود أبو سعود ، الذي أحاول كتلميذ مخلص أن أوصل أثره - في نفس الوقت - في الأندلس حيث أسست في قرطبة عاصمة الخلافة في الغرب وفي برج كالاهورا ، المتحف الوحيد المكرس في إسبانيا للتذكير بالوجه الحقيقي للإسلام الأندلسي ضد أعدائه والذي يزوره كل عام ١٠٠٠٠٠ شخص وحيث أناضل في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وجميع البلدان الغربية ضد اللوبي الصهيوني وأشجب الجرائم وأفضحها .

هكذا اعتقد أنني أؤدي واجبي كمسلم مخلص للقرآن الذي يدعونا بلا توقف لخدمة الله الذي لم ينقطع عن خلق وإعادة خلق العالم .
إن الوفاء للإسلام لا يعني الاحتفاظ بالرماد بل يحمل الشعلة ونقلها من جيل لآخر . [.

ملحق رقم (٢)

الأهرام تتعرض للهجوم من صحيفة فرنسية بسبب مقالاتها عن «جارودي»

هاجمت صحيفة «ليبراسيون» الفرنسية «الأهرام» بسبب الفصول التي نشرتها من كتاب الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي الصادر مؤخراً بعنوان «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» وكذلك المقالات المنشورة فيها حول مضمون الكتاب. ووصفت في مقال عنوانه «الأهرام وهذيان الصحافة المصرية» نشرته أمس الأول - تغطية «الأهرام» لما سمته «مسألة جارودي» بأنها تغطية مشبوهة. ونقلت «ليبراسيون» عن شريف الشوياشي مدير مكتب «الأهرام» في باريس قوله في رسائله للأهرام: «من الممكن في فرنسا أن تنتقد كل شيء وأن تتحکم في كل شيء، وهناك من يشككون في وجود الله والرسول والأديان، وهناك من يشنون الهجوم على السيد المسيح ويوجهون النقد العنيف الذي قارب السب الشخصي لرئيس الجمهورية، لكن هناك موضوعاً يرقى إلى مستوى الحقيقة المطلقة التي لا يحق لأحد أن يناقشها وهو عملية اضطهاد اليهود على يد النازية ومقتل ٦ ملايين يهودي وفقاً للتاريخ الرسمي للحرب العالمية الثانية». واعتبرت «ليبراسيون» أن تغطية الأهرام والصحافة المصرية عموماً للقضية تهبط إلى مستوى الصغائر، ووجهت اتهاماً ضمناً للأهرام بمعاداة اليهود.

تعليق الأهرام:

من المحزن أن تتزلق صحيفة مثل «ليبراسيون» إلى هذا المستوى المتدنى وأن تضرب عرض الحائط بأخلاقيات المهنة التي تقضى بعدم التهجم على الصحف الزميلة بهذا الأسلوب.

وقد نشرت صحيفة ليبراسيون نفسها من قبل مقالات متجنية وغير منصفة عن مصر تفوح منها رائحة التعاطف مع الجماعات المتطرفة التي تتمسح بالدين الإسلامي لممارسة العنف والإرهاب، لكن «الأهرام» كانت تريباً بنفسها دائماً عن الرد على هذه المهاترات.

ومن الواضح أن ما أثار نائرة ليبراسيون هو أن «الأهرام» أعطت جارودي متبركاً للدفاع عن نفسه، ونقلت عنها وكالات الأنباء العالمية ما نشرته، وأسهم

هذا في فك الحصار المفروض على جارودي في وسائل الإعلام الفرنسية.
و«الاهرام» وهي قلعة للدفاع عن مصالح الشعب العربي لم تتعود
المهاترات، وليس من نهجها معاداة اليهود، ولا تقر ما يسمونه «بمعاداة السامية»
كما هو معروف للجميع، ولكنها أيضاً لا تقر أن اضطهاد اليهود في الحرب
العالمية الثانية يبيح لإسرائيل قتل الأبرياء واحتلال أراضى الغير بالقوة وتحدى
الإرادة الدولية التي تطالبها بإنهاء هذا الاحتلال متمثلة في قرارات الأمم
المتحدة.

ملحق رقم (٣)

بيان لجنة الدفاع عن «جارودي»

في هذه الأيام يتعرض المفكر الفرنسي - الإسلامي «رجاد جارودي» لحملة شرسة من آلة الإرهاب الفكري الصهيوني ، بسبب كتابه الأخير : الاساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية .

ونحن إذ نعقد العزم علي تشكيل هذه اللجنة ، نعلن أننا نقف مع المفكر الكبير ضد جميع أشكال الإرهاب التي يتعرض لها ، وتدين محاولة محاكمته بسبب الآراء التي نشرها في كتابه ، ونهيب بمنظمات حقوق الإنسان أن تقف بجانبه ، موضحة مخالفة هذه المحاولات لمبادئ حقوق الإنسان التي تكفل له حق التفكير والتعبير عن آرائه ومعتقداته بشكل علمي رصين ، كما فعل في كتابه الأخير :

ونحن نؤمن بأن أي نقاط للخلاف بين جارودي وبعض علماء الإسلام ، موضوع حوار جاد وموضوعي وصبور ، بدلاً من أن يتقي طرف الطرف الآخر .

وتدعو اللجنة جميع المفكرين والمثقفين إلي مساندة جارودي وإرسال البرقيات إليه ، ومخاطبة الجهات الرسمية الفرنسية وجميع وسائل الإعلام الدولية ، من أجل وقف الحملة التي تهاجم جارودي ، وبيان ما يهم المجتمع الدولي من أفكاره ، وحقيقة المزاعم الصهيونية في الفترة الحالية ، ودحض المغالطات التاريخية التي يستندون إليها في تبرير دعواهم .

كما تدعو اللجنة جميع وسائل الإعلام العربية إلي وقف جميع أشكال العداء ضد المفكر الكبير ، ومساندته في قضيته العادلة التي هي قضيتنا . كما تهيب اللجنة بالحقوقيين العرب ، الانضمام إلي اللجنة من أجل تشكيل وفد يكون علي استعداد للسفر إلي فرنسا ، والدفاع عن جارودي في حال محاكمته ، لأن الوجود الحقوقي العربي في ساحة القضاء الفرنسي سيكون له أثر قوي في دعم المفكر الكبير ، وفي كسب الرأي العام الفرنسي والأوروبي وفي جعل قضيته قضية دولية ، بدلاً من التعتيم الإعلامي عليها ،

وتدعو اللجنة المثقفين والمفكرين في كل مكان في العالم ، إلي شن حملة

من أجل وقف هذه الحملات الصهيونية الظالمة التي آن الأوان لكي تتوقف وأن تعرف الشعوب حقيقة ما يحدث وماهية ما حدث .

كما تعلن اللجنة أنها لن تكتفي بالدفاع عن «جارودي» وإنما ستقوم بالدفاع ومساندة جميع المفكرين والباحثين والمبدعين ، الذين يتعرضون للقمع الفكري الصهيوني في أية بقعة في العالم وأنها منذ هذه اللحظة قد وضعت نفسها علي أهبة الاستعداد لمواجهة آلة الإرهاب الفكري - الإعلامي الغربية الصهيونية ، لحماية الباحثين والدارسين والمفكرين الذين يتصدون للمزاعم التاريخية والدينية والسياسية التي تروج لها الصهيونية .^(١)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(١) جريدة الشعب في ١٢ صفر سنة ١٤١٧هـ ، ٢٨ يونيو سنة ١٩٩٦ م .
وقع علي هذا البيان د. عبد الوهاب السيري ، د. محمد عمارة، د. حسين عبد القادر، د. علاء الأسواتي ، د. محمد عباس ، أ. مجدي أحمد حسون، د. نجلاء القليوبي ، د. رفعت سيد أحمد ، د. أحمد شوقي ، منال عجرمة ، أ. خالد السيد

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١١	الفصل الأول:
	إسلام جارودي المغزى والمرمى
١٣	كلمة حق
٢٨	المقومات الأساسية لكل من الحضارتين الإسلامية والعربية
٤٣	الفصل الثاني:
	عرض بعض آراء جارودي في ضوء أهل السنة والجماعة
٤٥	(١) عقيدة الإبراهيمية أو وحدة الأديان.
٥٦	(٢) السلفية
٥٩	الفصل الثالث :
	حقيقة السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية
٦٤	السلفية وفق التصور الغربي
٨٥	الفصل الرابع:
	النسق الإسلامي في مسائل الإلوهية والعالم والإنسان عند ابن تيميه .
١٠٣	الملاحق
١١٢	الفهرس



المؤلف في سطور

هذا الكتاب

- عرض الكتاب حياة جارودي وأطوار فلسفته وقيامه بتصحيح التفسير التاريخي المنحاز للغرب وتقويمه بمنهج نقدي.
- كما عرف بالحضارة الإسلامية عند جارودي وبيان فضائلها علي حضارة أوربا، في سياق الأخذ والعطاء فيما سماه (حوار الحضارات)، ومرشحاً قيم الإسلام لرأب الصدع في حضارة الغرب.
- وهكذا يصدق وصف الأستاذ أحمد بهجت حياة هذا بأنها هدية موحية لأبناء الشرق المهزوم روحياً أمام الغرب.
- وناقش الكتاب أيضاً فكرتين لا يسع المسلم موافقة الفيلسوف الكبير عليهما وهما:
 - عقيدة الإبراهيمية أو وحدة الأديان.
 - فكرته عن (السلفية) في الاسلام.
- ويعتبر الكتاب تقويماً عادلاً لفكر وموقف جارودي وشهادة حق أمام المدّعين لحرية الرأي والتفكير والاعتقاد وحقوق الإنسان ويعتبر الكتاب شهادة للتاريخ تسترشد به الأجيال وليعلموا أن الكيد والحقد على الإسلام لا يتوقف في كل زمان ومكان.
- الأستاذ الدكتور/ مصطفى حلمي.. ولد بمدينة الإسكندرية.. حاصل على الدكتوراه في الآداب من جامعة الإسكندرية (قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية) بمرتبة الشرف الأولي عام ١٩٧١م.
- عين في كلية دار العلوم قسم الفلسفة الإسلامية في مايو ١٩٧٢م. وتدرج حتى أصبح أستاذاً ورئيساً للقسم من عام ١٩٨٢م حتى ١٩٨٧م.
- أعير للتدريس بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد عام ١٩٨٧م.
- أعير للتدريس بجامعة أم القرى بمكة المكرمة من عام ١٩٨٧م حتى ١٩٩٢م.
- حائز على جائزة الملك فيصل العالمية في [الدراسات الإسلامية] عام ١٣٩٥ هـ - ١٩٨٥ عن مؤلفاته الآتية:
 - ١- منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين.
 - ٢- قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي.
 - ٣- السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية.
- حالياً أستاذ متفرغ بكلية دار العلوم جا القاهرة.

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي: ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت: ٤٩٠١٩١٤-٤٩٠٧٩٩٨-٤٩٠٧٩٩٨-٤٩٠٧٩٩٨ فاكس ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة: ٣٨٣٢٧٤٧



To: www.al-mostafa.com